المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثامن ٨

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثامن

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية

المحتويات

بحوث العدد الثامن من مجلة المؤرخ العربي

مقدمة

بين يدي القارىء العربي هذا العدد من مجلة (المؤرخ العربي) في حلة جديدة وهي حافلة بالمواضيع التاريخية التي اتسمت بالموضوعية والصفة العلمية.

ان مجلة المؤرخ العربي برهنت على اصالتها الاكاديمية وعنايتها بالتراث والسعي إلى ابراز الوجه المشرق لتاريخنا القومي .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تتقدم بالتحية إلى جميع المؤرخين العرب في جميع أنحاء الوطن العربي وتعاهدهم على المضي قدماً من أجل تحقيق أهدافنا المرسومة ومن أجل تطوير وازدهار الدراسات التاريخية .

ان الثقة الواسعة التي حصل عليها اتحاد المؤرخين العرب جعلت جميع المسؤولين في الوطن العربي يعملون على تبني مشروعات الاتحاد وتأييد نشاطاته، والموافقة على طبع مجلة المؤرخ العربي على نفقة الحكومات العربية الموقرة ، .... وان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تتقدم باسم المؤرخين العرب ببالغ الشكر والتقدير إلى كل المسؤولين العرب على تأييدهم واسنادهم ومساعدتهم للاتحاد لتمكينه من أداء دوره في المجالين القومي والعلمي وتحقيق اهدافه الثقافية .

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

ارنولد توينبي
المدافع عن العرب في الغرب

بقلم : محمد توفيق حسين
العراق

قليلون هم المؤرخون والمفكرون الذين نالوا في حياتهم ما ناله ارنولد توينبي في حياته المديدة (١٨٨٩ - ١٩٧٥) من شهرة وتقدير، وقليلون أيضاً هم المؤرخون والمفكرون الذين وجه لهم ما وجه له من نقد، بعضه علمي رصين، وأكثره لا يخلو من غرض وتحامل. وقائمة الكتب والمقالات التي كتبت عن فكره، شرحاً ونقضاً وتأييداً، تؤلف مجلداً. ومن نقاده المتأخرين ايلي كيدوري أستاذ علم السياسة في جامعة لندن. وفي كتابه «تشتم هاوس فيرشن»[1]، الصادر في لندن سنة ١٩٧٠، فصل طويل عقده على نقد توينبي يحمل عنوان الكتاب نفسه. وأريد أن أقف وقفة قصيرة عند بعض ما جاء في هذا الكتاب من مآخذ على توينبي لأنها تكشف، في رأيي، عن مكانته مؤرخاً ومفكراً ومناضلاً. وتوضح جانباً من أفكاره الأساسية، وتجلو مواقفه في عدد من مشكلات العالم المعاصر، ومن قضايا الأمة العربية. ولن أتعرض لنقد الأستاذ كيدوري لنظرية توينبي في تفسير التاريخ. ففي بحث توينبي في أسباب نشوء الحضارات وانحلالها، مجال واسع للنقد، سواء من حيث الأسس التي أقام عليها نظريته والمنهج الذي اتبعه، أو من حيث الوقائع التي استشهد بها، والتفاصيل التي أوردها. وسأقتصر على ما له علاقة بتاريخ العرب الحديث.

من أفكار توينبي الأساسية التي أعلنها منذ مطلع شبابه، ونماها، وطورها، ودافع عنها، طوال حياته، نقده العنيف للغرب الذي غزا البلاد الشرقية، وأخضعها بالقهر لسلطانه، واستغل شعوبها، وعبث بحضاراتها وثقافاتها العريقة. وقد أوضح ذلك وفصله في أول كتاب مهم له نشره ١٩٢١ بعنوان :

« المسألة الغربية في اليونان وتركيا » [٢] وفي سنة ١٩٥٣ نشر كتاباً عنوانه « الغرب والعالم » [٣] شرح فيه اعتداء الغرب على العالم شرحاً وافياً ، مدعماً بالوقائع والشواهد التاريخية . وهذه عبارة منه « سيذكر الروس الغربي قائلين له : ان الجيوش الغربية قد غزت بلادهم براً سنة ١٩٤١ ، ١٩١٥ ، ١٨١٢ ، ١٧٠٩ ، ١٦١٠ . وستذكره شعوب أفريقيا وآسيا بأن المبشرين والتجار والجنود الغربيين جاءوا من وراء البحار إلى سواحلهم ، وأخذوا يتوغلون في بلادهم منذ القرن الخامس عشر وسيذكره الآسيويون كذلك بأن الغربيين في الفترة ذاتها ، قد احتلوا معظم ما كان خالياً في الأميركتين وأستراليا ونيوزيلندة وأفريقيا الجنوبية والشرقية . وسيذكره الأفريقيون بأنهم قد أخذوا عبيداً ، ونقلوا قسراً عبر المحيط الأطلسي ، ليخدموا المستعمرين الأوربيين في قارتي أميركا ، وليعملوا أدوات وآلات حية على اشباع جشع أسيادهم الغربيين للمال والثراء . وسيذكره أبناء أميركا الشمالية الأصليون بأن أجدادهم قد اقتلعوا من أرضهم ، وطرحوا جانباً ، لتخلوا الأرض للأوربيين المغيرين ، ولعبيدهم الأفريقيين » [٤] .

يرد الأستاذ كيدوري على لائحة الاتهام هذه ، المستندة إلى حقائق وقعت في التاريخ ، بقوله : « ان بقية أجزاء العالم لم تكن بريئة من العنف والخطأ وسوء التصرف ويحاول أن يوهم القارىء بأن آراء توينبي في عدوانية الغرب تستند إلى عقيدة سياسية واقتصادية راجت حيناً من الزمن وأصبحت الآن عتيقة متروكة ، وهو يقول : « يبدو أن توينبي كان قد أخذ بالفكرة المعادية للامبريالية التي قال بها هوسبون ، والتي كان يعتنقها الراديكاليون ، المتطرفون ، الانكليز قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها ، وانه كان يعتقد بأن الدول الغربية كانت تنشىء الامبراطوريات ، وتحافظ عليها ، للحصول على منافع اقتصادية . ويبدو أن توينبي قد أصبح ، على مرور الأيام أشد إيماناً بهذه الفكرة ، كما وأصبح أشد تطرفاً ، وأعظم عناداً في التعبير عن كراهيته للجشع الغربي ، وللاضطهاد الغربي للشعوب » [٥] .

وفي الجزء الأول من « دراسة التاريخ » المنشور سنة ١٩٣٤ يقرع توينبي بني قومه الغربيين على اعتقادهم بتفوق حضاراتهم على الحضارات الأخرى ، ويدينهم على قهرهم للشعوب الملونة . وفي الجزء الثاني المنشور في السنة نفسها

أدان توينبي النشاط الاقتصادي الغربي في الأقطار الآسيوية والأفريقية . « لقد اهتم أصحاب المزارع الغربيون المحدثون بسيلان لا لنشر الحضارة فيها وإنما لكسب الثروات الواسعة بأسرع وقت ممكن »[٦] .

ويلخص توينبي موقفه من عدوانية الغرب في الجزء الأخير من كتابه « دراسة التاريخ » الصادر سنة ١٩٦١ فيقول : « في نظري ان الغرب هو المعتدي الدائم »[٧]. ويعلق كيدوري على عبارات توينبي المدينة لجشع الغربيين واستغلالهم بما يشبه تعليقه السابق فيقول : « ما أدرانا ان مالكي المزارع السينهاليين سيكونون أعظم شفقة بالفلاح السيلاني وأقل استغلالاً واضطهاداً له »[٨] .

يستند توينبي في إدانته لعدوان الغرب على أساس أخلاقي من ايمانه بالمساواة بين الشعوب كافة ، وبحق كل شعب في الحرية والكرامة ، على أساس أن الشر لا يبرر الشر ، والعدوان لا يبيح العدوان ، فعلى أي أساس يستند منتقده كيدوري ؟ لا اضنه إلا مؤمناً بأن الحق للقوة ، وان وجود غزاة مخربين يبيح لكل من يقدر أن يكون غازياً مدمراً . وان وجود مستغلين جشعين يسمح لكل إنسان أن يكون مستغلا نهاباً . يعني أنه يريدنا أن نمحو المثل الانسانية الرفيعة ، والقيم الأخلاقية السامية ، التي توصلت اليها البشرية خلال مسيرتها المضنية الطويلة ، ونعود إلى قوانين الغاب حيث يفترس القوي الباطش الضعيف الوادع .

ويأخذ كيدوري على توينبي موقفه من اليهود واليهودية . فتوينبي يقدر بأن غطرسة الغرب ترجع إلى فكرة اليهود عن « الشعب المختار » وان التعصب الديني ، والشعوب بالاستعلاء العنصري ، عند الغربيين مستمد من « العهد القديم » وزيادة على هذا فإن اليهود هم طائفة متحجرة ، أي جماعة منعزلة من الناس لم تتطور روحياً ، ولم تنتج حضارة عالمية . وما العهد القديم إلا نموذج من الأساطير السريانية ولا يملك كيدوري حجة يدحض بها دعوى توينبي إلا الغضب فيقول : « ان توينبي يجهل ، كل الجهل ، اليهودية بوصفها ديانة حية مارستها أجيال متعاقبة من اليهود منذ أن هدم الرومان الهيكل »[٩] . ونحن نقول للاستاذ كيدوري : إذا كان توينبي جاهلا بالديانة اليهودية فمن هو العالم بها ؟ إن اتهام

عالم مثل توينبي بالجهل ، دون حجة ، لا يضيره ، وإنما يدل على جهل متهمه بآداب الجدل العلمي الرصين .

وخطأ توينبي الآخر ، في نظر كيدوري ، هو إدانته الثابتة لمعاملة بريطانيا للعرب فتوينبي يعتقد جازماً بأن معاملة بريطانيا وفرنسا للعرب لم تكن مستقيمة ولا عادلة ، وان بريطانيا قد خدعت العرب وضللتهم وغشتهم [١٠] . وهذا موقف قديم لتوينبي ففي تشرين الأول سنة ١٩١٨ كتب في تقرير كلفته باعداده وزارة الخارجية البريطانية : « ان وعد بلفور يتناقض مع الوعود التي قطعتها بريطانيا لحسين شريف مكة » [١١] . ويرد كيدوري : « ان توينبي أخطأ فهم الرسائل المتبادلة بين مكماهون والشريف حسين ، وانه لم يحاول ان يفحص وعود مكماهون فحصاً دقيقاً » [١٢] .

ومن أخطاء توينبي ، في نظر كيدوري ، انه كان يؤمن بأن سكان البلاد العربية ، الواقعة في الجزء الآسيوي من الوطن العربي ، كانوا يرغبون في الوحدة السياسية لبلادهم ، وانه يقول : كانت هذه الأقطار العربية ،قبل الحرب العالمية الأولى ، موحدة سياسياً ، ولكن الانكليز والفرنسيين أنشأوا بعد سنة ١٩١٨ حدوداً مصطنعة واعتباطية بشكل يذكرنا بتقسيم بولندا الظالم في القرن الثالث عشر [١٣] ويؤكد توينبي رأيه هذا بوضوح وصراحة فيقول : « ان هذا التقسيم قد فرض على العرب ضد ارادتهم .. وانهم حتى الآن قد رفضوا أن يعترفوا بعدالة أو شرعية هذا الترتيب . وانه لم تكن لهم كلمة مسموعة في الموضوع وهم يعتبرونه مضاداً لمصلحتهم ، وانهم سيمحونه محواً ما ان تتاح لهم الفرصة » [١٤] . ويرد كيدوري بقوله : « هذا يعني أن نتقبل ، دون فحص ، ادعاءات أقلية ضئيلة ، لا تمثل إلا نفسها ، في العالم المتكلم باللغة العربية » [١٥] . صدق توينبي ، ولم يستند رد كيدوري على أساس تاريخي ، وان أراد دليلا فليدرس باخلاص ايمان جماهير الأمة العربية بالوحدة العربية ، ونضالاتها في سبيل تحقيقها .

ولعل أعظم أخطاء توينبي ، بل خطيئته التي لا تغتفر ، في نظر كيدوري ، هو دفاعه عن حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، واعتباره الصهيونية حركة

عدوانية استعمارية ، مساوية النازية ، بل أشد منها سوءاً وعدواناً . ألم يشبه مجازر الصهاينة للعرب في فلسطين بقتل النازيين لليهود (١٦) .

إن ما يثير الأستاذ كيدوري على توينبي هو بالضبط ما يحببه الينا ، ويعلي من شأنه في أنظارنا . فقد دافع عن حقوق الشعوب المضطهدة ، وناصر بشجاعة وذكاء حقوق العرب عامة ، وحق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين العربية خاصة . يوم كان أنصار الحق العربي في الغرب قلة .

ولهذا كان الكتاب الصهاينة ، ومن شايعهم وتأثر بفكرهم ، أشد نقاد توينبي تحاملاً وتجنياً وعنفاً . وفيما ذكرته من نقد الأستاذ كيدوري مثل فيه الكفاية وأتركه الآن وأعود إلى بيان الخطوط العامة لرأي توينبي في الصهيونية والقضية الفلسطينية .

درس توينبي التاريخ اليهودي دراسة (١٧) متعمقة تقوم على المكتشفات الآثارية ، والدراسات المقارنة للحضارات المعاصرة لليهود ، وعلى التحليل النقدي للكتب الدينية بوحيه ورسالته ، واختيارهم شعباً خاصاً به من دون الناس أجمعين وأعطاهم ميثاقه وعهده الذي ملكهم به فلسطين وما يحيط بها من البلاد ملكاً دائماً . وخلاصة رأيه أن اليهودية ظاهرة اجتماعية تطورت من بدايات أسطورية ساذجة إلى أن استقرت على عقيدة التوحيد المعروفة . ولم يتوصل اليهود إلى هذه العقيدة بمفردهم ، وإنما كان ذلك انجازاً جماعياً مشتركاً بين اليهودية والزرادشتية والمسيحية والاسلام ، مهدت له الأفكار الدينية في مصر وسوريا وما بين النهرين ولم تسلم عقيدة التوحيد عند اليهود من النواقص والشوائب ، وأخطرها آفة التعصب الضيق الذي مارسوه ضد جيرانهم ومخالفيهم في العقيدة والرأي والغرور والتالي على الأمم والشعوب . « فقد اقنعوا أنفسهم بأن اكتشاف إسرائيل لا له واحد حق قد برهن على أن بني إسرائيل هم شعب الله المختار » . يرفض توينبي كون اليهود شعب الله المختار ، ويعتبرها خطأ علمياً وتاريخياً وأخلاقياً ، ويرفض زعم اليهود بأن الله قد تعهد لهم بتمليكهم فلسطين وتمكينهم من الاستيلاء عليها ، وهو يقول : « أنا لا أعتقد بأن اليهود ، أو الإسرائيليين البريطانيين ، هم شعب الله المختار ، وأنا لا أؤمن ، بالأحرى ،

بأن إعادة إسكان اليهود في فلسطين هو الكمال الذي داب على انجازه جميع التاريخ البشري منذ العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ».

وقد أنشأ اليهود على أساس عقائدهم هذه ، ونتيجة للمحن التي حلت بهم ، مجتمعاً طائفياً ، مغلقاً ، خاصاً بهم ، وقد أصروا على حفظ هويتهم القومية ، والدينية وعلى أن يبقوا يهوداً في كل الظروف ، وظلوا يحلمون بالعودة إلى أرض الميعاد .

بعد انهيار آخر مقاومة لليهود على يد الرومان سنة ١٣٥ م لم تبق لهم دولة ولم يجمعهم وطن، وعاشوا أقليات منتشرة في أقاليم الشرق الأدنى والامبراطورية الرومانية التي فسحت لهم مجال العيش ، وتركتهم يمارسون عبادتهم بحرية . وفي ظل الدولة الإسلامية ، وجدوا الأمن والحرية والمعاملة الحسنة . ولكن وضعهم في أقطار أوربا الغربية ، منذ العصور الوسطى ، أصبح سيئاً ، بل وكان يزداد سواء ، والاضطهاد يلاحقهم جيلاً بعد جيل . وهنا يبدأ فصل جديد في تاريخ اليهود ، هو تاريخ علاقتهم بالغرب حيث نشأت المشكلة اليهودية ، وتعقدت ، وحدت بفاجعة . ولاضطهاد الغربيين لليهود أسباب عديدة : دينية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية . فمنذ العصور الوسطى كان المسيحيون الغربيون يطمحون إلى إنشاء مجتمعات متجانسة من السكان عنصراً ولغة وديناً ، وكان وجود الأقلية اليهودية المتمسكة بهويتها القومية والدينية ، المنغلقة على نفسها ، يبدو عائقاً دون التجانس السكاني ، والوحدة القومية ، وكان هذا العامل الاجتماعي كثيراً ما يظهر بمظهر العداء الديني ، وكانت القرائن لتغطية هذه المشكلة الاجتماعية بغطاء ديني قائمة ميسورة ، فاعتبر اليهود مسؤولين عن الجريمة الكبرى ، جريمة صلب السيد المسيح ، وغير ذلك من المآخذ العقائدية والخصومات اللاهوتية ، ويؤكد توينبي على العامل الاقتصادي في نشوء المشكلة اليهودية فقد كان الاقتصاد في أوربا بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، اقتصادياً زراعياً متخلفاً فأتاح ذلك الفرصة أمام اليهود للتغلغل في هذا المجتمع ، وذلك انهم زودوه بما يحتاجه من الخبرة التجارية ، والمعاملات المالية ، والتنظيم الاقتصادي عموماً ، نعم كان اليهود موضع كراهية المسيحيين ، ولكن كان يحد من هذه الكراهية كون اليهود طائفة لا غنى عنها للمجتمع ، وقد دفع نجاح اليهود

في التجارة والمال طبقاً من مسيحيي الغرب إلى إتقان المهن الاقتصادية. وما ان استحوزت البورجوازية المسيحية الناشئة لنفسها على مقدار كاف من الخبرة والمهارة ورأس المال حتى سعت إلى انتزاع المكانة التي يحتلها اليهود، واستخدمت جميع إمكاناتها العديدة والسياسية والاجتماعية والدينية لطرد منافسيها اليهود الذين ما كان بإمكانهم أن تتغلب عليهم في المنافسة الاقتصادية.

وقد أرست البرجوازية المسيحية قواعدها، ووطدت مركزها الاقتصادي، لم يعد خوفها التقليدي من المنافسة الاقتصادية يمنعها من الافادة من المقدرة اليهودية في الاقتصاد القومي، وعلى هذا سمحت الدول الغربية بعودة اليهود اليها منذ عام ١٥٩٣ فطالماً.

وتلا هذا التحرر الاقتصادي لليهود في الغرب تحررهم الاجتماعي والسياسي نتيجة الثورات الدينية والايدولوجية. وما ان حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود، رسمياً في جميع مجالات النشاط البشري، حقيقة مقررة في أوربا، باستثناء البلاد التي كانت تؤلف فيما مضى المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا والتي ضمت منذ سنة ١٨١٥ إلى الامبراطورية الروسية.

عند هذه المرحلة بدا وكأن المشكلة قد وجدت لها حلا بامتزاج الجماعتين اليهودية والمسيحية امتزاجاً طوعياً. ولكن الحاجز النفسي ما برح قائماً في الواقع بين المسيحيين الغربيين واليهود. وكان اليهودي وهو يعيش في مجتمع موحد، من الوجهة الرسمية، يجد نفسه شخصاً معاقباً ومنبوذاً بمختلف الوسائل الملتوية. وهذا ما كان يدفع اليهود إلى التكتل وإلى مزيد من الحذر من المجتمع الغربي المسيحي. وكان البورجوازي الغربي المسيحي يطمع في احتلال مركز اليهودي بالاضافة إلى مركزه بينما كان البورجوازي اليهودي ينظر بخوف إلى المستقبل الذي سيحرمه من مركزه الأصلي في الاقتصاد الغربي المتوسع.

وازداد الوضع سوءاً حينما زادت نسبة اليهود العددية إلى مجموع السكان المسيحيين نتيجة للهجرة اليهودية التي تدفقت منذ عام ١٨٨١ من البلاد الواقعة تحت الحكم الروسي. واشتدت نزعة العداء لليهود ضراوة في النمسا وألمانيا نتيجة لهجرة يهودية أخرى وفدت اليها خلال الحرب العالمية الأولى من غاليسيا

وبولندا والمناطق اليهودية في روسيا . لقد حدث لليهود في روسيا وأوربا الشرقية عموماً ، ما حدث لهم في الغرب : سمحوا بوجود اليهود عندما كان اقتصادهم زراعياً متخلفاً ، وعندما كان اليهود يؤدون وظيفة اجتماعية واقتصادية ما كان بامكانهم أن يقوموا بها . فلما نما اقتصادهم ، واستطاعوا أن يقوموا بالأعمال التي كان يقوم بها اليهود ، اضطهدوهم وطردوهم من بلادهم . وازداد وضع اليهود سوءاً عندما تحولت المجتمعات الغربية من ليبرالية متفتحة إلى قومية متعصبة كارهة لكل طائفة قومية ودينية منغلقة على نفسها كالطائفة اليهودية .

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر انبعاث النزعة المعادية لليهود بأبشع أشكالها من ذلك مذابح اليهود في سنة ١٨٨١ وما بعدها التي كانت الحكومة الروسية القيصرية تفتعلها وتحرض عليها لتحول نقمة الشعب على حكمها المتفسخ إلى اليهود . واشد من ذلك ما حدث في ألمانيا بين عامي ١٨٧٣ ، و ١٨٩٦ ، وما حدث في فرنسا أثناء قضية دريفوس . كل هذا دفع مفكري اليهود إلى اليأس من حل المشكلة اليهودية في الغرب ، وإلى التفكير في جمع اليهود المشتتين في دولة قومية خاصة بهم لا تضم إلا سكاناً متجانسين من اليهود . وهكذا نشأت الصهيونية التي كان الصحافي النمساوي ثيودور هرتزل أول الداعين لها .

من دراسة تاريخ المشكلة اليهودية استخلص توينبي النتيجة التالية :

المشكلة اليهودية إنما هي مشكلة أنتجتها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والايدلوجية في الغرب ، وعقدها اصرار اليهود وعنادهم على الاحتفاظ بهويتهم القومية والدينية المتميزة ، وان العرب خاصة ، والعالم عامة ، لم يكونوا طرفاً فيها ، ولا مسؤولين عنها .

أبقى اليهود تعيين البلد الذي سينشؤن فيه دولتهم العتيدة قضية مفتوحة حتى عرضت عليهم الحكومة البريطانية موطناً لهم في شرقي أفريقيا في آب ١٩٠٣ ولما رفض المؤتمر الصهيوني السابع هذا العرض سنة ١٩٠٥ ، أصبحت فلسطين هدف الحركة الصهيونية ومحورها عملياً .

ولم يكن هدف الحركة الصهيونية باقامة دولة يهودية قومية في فلسطين ليتحقق لولا مساعدة الدول الغربية، وخاصة منذ الحرب العالمية الأولى وبسببها، وكان انهيار الدولة العثمانية، التي كانت تحمي فلسطين، أول خطوة في طريق تحقق مطامع الصهيونية وتلاه سقوط امبراطورية آل رومانوف في روسيا سنة ١٩١٧، إذا كان النظام القيصري في روسيا شديد العداء لليهود، يعارض أية محاولة من جانب حلفائه الدول الغربية لاقامة وطن لليهود في فلسطين، على أساس ان تحويل فلسطين إلى دولة قومية يهودية يدنس هذه الأرض المقدسة. وسقطت القيصرية في ١٢ آذار ١٩١٧، وأعلن وعد بلفور في اليوم الثاني من تشرين الثاني من العام نفسه. ومن الآثار الأخرى للحرب العالمية الأولى على تقوية الحركة الصهيونية اشتداد المنافسة بين الدول المتحاربة على خطب عطف اليهود، إذ كان لديهم نفوذ اقتصادي وسياسي كبير، وكانت لهم الكلمة الحاسمة في ميزان العلاقات الدولية الغربية المهتزة. وكانوا يؤلفون قوة ملموسة في الحياة الداخلية لدول أوربا الوسطى والغربية على السواء، وبدرجة أكبر في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان المتحاربون الأوربيون يدركون ان الكلمة الأخيرة في الصراع الأوربي هي كلمة أميركا، وان كلمة أميركا تتأثر إلى حد كبير بآراء مواطنيها من اليهود. فلما احتلت بريطانيا فلسطين وجدت الوسيلة لارضاء الصهاينة، ومن ورائهم من يهود أوربا وأميركا، فأصدرت وعد بلفور. وفي وعد بلفور يبدأ التطبيق العملي للعدوان الصهيوني، وتبدأ المرحلة الأولى من مأساة فلسطين.

ويشرح توينبي بتفصيل مسؤولية جميع الأطراف الذين ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى بحق الشعب العربي الفلسطيني، ويركز ادانته على المسؤولين الرئيسيين: انكلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والغرب عموماً، والصهيونية العالمية. فلولا ان اليهود كانوا جزءاً من العالم الغربي، الذي بسط على العالم، لما استطاعوا أن يقهروا عرب فلسطين. ولولا الولايات المتحدة الأمريكية واسنادها العسكري والسياسي والاقتصادي للصهيونية، ما كان بالامكان أن تظهر إسرائيل للوجود، ولا أن تستمر على البقاء بعد أن أوجدت. وتنحصر مسؤولية ألمانيا، من حيث الأساس وخاصة في فترة حكم النازيين، في أنها اضطهدت اليهود اضطهاداً وحشياً، فاستغل الصهاينة ذلك في حمل اليهود

على الهجرة إلى فلسطين ، وفي كسب عطف الشعوب الأوربية والأمريكية على اليهود المضطهدين . ويحمل توينبي وطنـه بريطانيا ، وشعبه الانكليزي عموماً ، أكبر قسط من المسؤولية . فبريطانيا هي الـتي أعطت وعد بلفور ، وهي التي شاركت في تنفيذه خطوة فخطوة ، فاستغلت انتدابها عـلى فلسطين فسمحت بهجرة اليهود ، واقطعتهم الأراضي الأميرية ، وتغاضت عن تنظيماتهم العسكرية ، وقضت على انتفاضات وثورات الشعب العربي الفلسطيني بكل ما تملك من قوة عسكرية وارهاب .

والصهيونية ، في نظر توينبي ، هي المسؤولة المباشرة عن جريمة العدوان على فلسطين العربية . وقـد شرح العدوان الصهيوني شرحاً مفصلاً ، وحلل أبعاده وأدانه . ولعل أية جريمة في التاريخ لم تؤثر فيه ، ولم تثره عاطفة وفكراً ، مثل ما أثرت فيه واثارته مذبحة دير ياسين .

وفي المناظرة بـين توينبي والسفير الاسرائيلي في كندا ياماكوف هرتزوك عرض موجز لدعاوي اليهود وأسلوبهم في عرض هذه الدعاوي ، ولموقف توينبي من هذه المزاعم ورده عليها ، ودفاعه عن الحق العربي . ويحسن أن أختم كلمتي هذه بعرض سريع لبعض ما ورد في هذه المناظرة من أفكار . يقول توينبي : « تقع مأساة اليهود على الجانب اليهودي والجانب المسيحي . ان اليهـود كانوا يشعرون بأن المسيحيين لم يتقبلوهم حقاً في مجتمعهم المسيحي تقبلاً كاملاً . هذا بينما يشعر المسيحيون بأن اليهود لم ينصروا كلية في المجتمع المسيحي » .

يقول هرتزوك : ان لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين. ويرد توينبي : ان حق اليهود في فلسطين قد زال بزوال دولتهم ومجتمعهم من فلسطين على يد الرومان منذ سنة ١٣٥م . وان فلسطين أصبحت من حق الشعب الذي سكنها منذ ذلك التاريخ وما زال يسكنها عندما أعلنت بريطانيا وعد بلفور . ولو سلمنا بصحة دعوى اليهود لكان علينا أن نسلم بحق الويلشيين في بريطانيا . ان علينا في هذه الحال أن نرحل حوالي ٥٠ مليون انكليزي ونطردهم ليكونوا لاجئين. ويقول توينبي : ان السفير يناقض نفسه فهو يطالب بعودة اليهود إلى فلسطين مع انه لم يكن هنالك استقراراً سكاني يهودي ثابت في فلسطين منذ سنة ١٣٥ م وينكر

على العرب الفلسطينيين هذا الحق مع انهم طردوا بالقوة من بلادهم منذ عهد قريب ، من سنة ١٩٤٨ .

ويقول هرتزوك : ان اليهود لم يطردوا الفلسطينيين، وإنما ترك الفلسطينيون بلدهم وأصبحوا لاجئين استجابة لنداء زعمائهم . ويرد عليـــه توينبي : ان الفلسطينيين اضطروا على ترك وطنهم نتيجة المذابح الصهيونية ، ونتيجة لانذارات القوات المسلحة الاسرائيلية بأنهم سيذبحون كل فلسطيني يبقى في فلسطين كما ذبحوا النساء والشيوخ والأطفال في دير ياسين ويقول هرتزوك : ان الفلسطينيين قد فقدوا حقهم وأملاكهم في فلسطين نتيجة لخروجهم الطوعي منها ، ويرد عليه توينبي : ان خروج العرب من فلسطين سواء كان عن حكمة منهم أو لأنهم هربوا من خطر الموت المحتم ما لم يفقدهم حقوقهم في وطنهم وأملاكهم . وكما ان اليهود الذين هربوا من ألمانيا في عهد هتلر ، وملايين الفرنسيين الذي نزحوا من شمال فرنسا إلى جنوبها بعد الغزو النازي سنة ١٩٤٠ لم يتخلوا عن حقوقهم وأراضيهم وممتلكاتهم وبيوتهم ، فكذلك الفلسطينيون ما زالوا أصحاب الحق في فلسطين . ولهذا ، يقول توينبي : فإنني ما زلت أقول بأن إسرائيل بكاملها لا زالت ،من وجهة شرعية ، ملكا لعرب فلسطين الذين نزحوا عنها أثناء القتال بين الدول العربية من خارج فلسطين وبين الاسرائيليين ، ما عدا الاملاك التي اشتروها شراء قبل ذلك . ولذلك فإن الممتلكات في إسرائيل لا زالت ، من حق هؤلاء العرب بصورة شرعية .. ان ما فعلته إسرائيل هو سرقة ونهب .

يعترض هرتزوك على مساواه توينبي بين مذابح النازيين لليهود وسلوك الصهاينة مع العرب سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . فيرد عليه توينبي قائلا : ان ما نكرهه فيما فعله الألمان هو أن جرائمهم كانت تدرس وتخطط سابقاً ، ثم يجري تنفيذها بدم بارد ، وقوة شنيعة ، وهدف لعين . وأنا موقن أن جميع الصفات تنطبق على مذابح إسرائيل للعرب في فلسطين .

يقول توينبي : زرت اللاجئين الفلسطينيين في مخيماتهم ، وشاهدت مأساتهم وسمعت أطفالهم في غزة يقولون : « كانت هذه أرضنا ، ونحن مصممون على العودة » .

صدقت أيها العالم المناضل انك لم تؤرخ في الماضي، وتعالج مشكلات الحاضر فقط، وإنما كنت تستشرق، بفكرك اللماح، أفاق المستقبل. ان الاطفال الفلسطينيين الذين شاهدتهم وسمعتهم قد كبروا وأصبحوا مقاتلين في الثورة الفلسطينية وسيكبر أطفالهم ويقاتلون، حتى تتحرر فلسطين، كل فلسطين العربية، وعند ذلك سينتصر فكرك انتصاره الذي يستحقه.

---

(١) Elie Kedourie, The chatam House Version, London, 1970

(٢) Toynbee, the Western Question in Greece and Turkey

(٣) « العالم والغرب » Toynbee, the World and the West

(٤) كيدوري ص ٣٧٢ (٥) المصدر السابق ص ٣٧٢ (٦) شرحه ص ٣٧٢

(٧) شرحه ص ٣٧٣ (٨) شرحه ص ٣٧٢ (٩) شرحه ص ٣٧٤

(١٠) شرحه ص ٣٧٦ (١١) شرحه ص ٣٧٥ (١٢) شرحه ص ٣٧٦

(١٣) شرحه ص ٣٧٦ (١٤) شرحه ص ٣٧٦ (١٥) شرحه ص ٣٧٦ - ٣٧٧

(١٦) شرحه ص ٣٧٦

(١٧) اعتمدت في استخلاص رأي توينبي في تاريخ اليهود وعقيدتهم وعلاقتهم بالغرب ونشوء المشكلة الصهيونية على الجزئين الثامن والثاني عشر من « دراسة التاريخ » باللغة الانكليزية . وعلى ترجمة الأستاذ طه باقر لموجز سمرفيل « بحث في التاريخ » وترجمة الأستاذ فؤاد محمد شبل « مختصر دراسة التاريخ » وقد فصلت آراء توينبي في دراسة مطولة نشرت في مجلة آفاق عربية ، العدد ٧ ، ١٩٧٦ .

(١٨) اعتمدت في هذه الخلاصة على النسخة العربية لكتاب ارنولد توينبي : فلسطين جريمة ودفاع . تعريب أكرم الديراني ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٦ .

الآثار الإسلامية في الأندلس

للدكتور أحمد فكري
مصر

لست أعرف فناً من الفنون خلد من الآثار مثل ما خلد الفن الاسلامي سواء من حيث العدد أو التنوع ولم يتح إلى اليوم لرحالة أو عالم من علماء الآثار أن يزور الآثار الاسلامية كلها ، فهي تنتشر في جزء كبير من المعمورة ، يمتد من بلاد الهند إلى بلاد الأندلس ، وتحوى كل بلد من البلاد الاسلامية ، عدداً تحده مئات السنين ، ويقصر عن الاحاطة به ، وما وهب الله الانسان من عمر مديد .

ولهذ ، فموضوع الآثار الاسلامية شاسع لا حد له ، والحديث عنها طويل لا نهاية منه ، وقد اخترت أن أحدثكم هذه المرة عن الأندلس ، وعما شاهدته فيها من آثار .

وكلكم يعرف ما أحاط بمدينة الأندلس من قصص وأساطير ، يكاد المرء يحسبها خيالاً ، أو يفترض المغالاة ، فيا ذكرته أحاديث المؤرخين، عمن أظلتهم هذه البلاد ، من رجال ، بارزين في العلم والأدب والدين ، والفن والفلسفة والسياسة ، وفي كل نواحي الحياة والتفكير .

لم يمض قرن على الهجرة ، حتى كانت جيوش المسلمين قد وصلت إلى غرب أوروبا ، واحتلت الجزيرة ، ودانت لها البلاد دون كبير عناء ، وظلت الأندلس أكثر من أربعة قرون ، قوة حيوية عظيمة ، في هذه المنطقة من العالم .

ومضى نصف القرن الأول، والمسلمون منصرفون إلى تنظيم أمورهم في هذه البلاد ، وتدعيم حكمهم عليها ، فشغلهم ذلك عن العناية بالفنون .

إلا أنه ما لبثت الفنون ان ازدهرت في الأندلس ، بتولي عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها ، والخلافة عليها ، وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير، في تاريخ الأندلس ، وفي التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، انها كانت أم المدائن ، وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ، ومعدن العلماء ، وانها كانت أهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المباني والعمارة، كثيرة الرياض والبساتين ، وان بها جامعاً، ليس في بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء ، واتقن صنعة .

ولم يخطىء المؤرخون أو يغالوا ، فما زال مسجد قرطبة ، أفخم المساجد القائمة وأعظمها .

أقامه عبد الرحمن بن معاوية، سنة ٧٨٦ ميلادية، على انقاض المسجد العتيق، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى في عصر عبد الرحمن الأوسط ، سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية في عصر الحكم المستنصر بالله ، سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة على عهد المنصور، ولي الخليفة هشام بن الحكم ، بعد ذلك بست وعشرين سنة ، وقد تضاعفت مساحة المسجد في هاتين المائتين من السنين ، ما يقرب من ثلاث مرات .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها ، سبعة أمتار تقريباً، ما عدا رواق المحراب، فعرضه يقرب من ثمانيه أمتار، ويحف بالأروقة من كل جانب، صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون ، فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين اسكوباً ، حتى يصل إلى المحراب ، وعرض الأساكيب ، يقرب من ثلاثة أمتار لكل منها .

وجدار القبلة في المسجد، يمتد على مائة وثلاثين متراً،أما أسواره الجانبية،

فطول كل منها مائة وثمانون ، أي انه مستطيل ، يزيد طول مجموع أضلاعه ، عن ستمائة متراً .

وبالمسجد تسعة عشر باباً، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة،الباقي إلى البهو. أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده ، لأكثر من خمسة وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد ، لما يقرب من نصف هذا العدد .

وتمتد في بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السقف ، وتظل من تحتها مساحة أربع افدنه ، هي مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام ، تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته، مما لم يصل اليه أي مسجد آخر من مساجد الاسلام ، فان العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ، ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعـــة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، وتدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة لجميع أطرافه ، ويخيل اليـه انه يتجول في غابة شاسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام، وجلب البعض الآخر من بلاد الغرب الأقصى ، ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسي في شيء ، ولكن ابداع هذا الفن يتجلى أولاً في تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجـلال ، ويتجلى ثانياً في ابتكار موفق توصل اليه بناء المسجد الأول ، في عصر عبد الرحمن بن معاوية ، ذلـك أن الأعمدة الـتي استعان بها هذا الأمير في اقامة مسجده،قصيرة،بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هـذه سقف المسجد ، وان امتدت هذه السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء، ولا الهواء ، إلى بيت الصلاة ، إذ انه يخلو من النوافذ ، ولا يصل اليه الضوء إلا من البهو وجدار القبلة ، كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً ، وقد هدى

البحث ببناء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة ، دعائم فيتضاعف ارتفاعها ، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً ، توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة ، وأقام بين رؤوس الأعمدة صفاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم ، وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى ارجاء بيت الصلاة ، حتى بعد امتداد هذا البيت ، وابتعاد المحراب ، عن البهو - الذي هو منبع الضوء لهذا البيت – بما يزيد عن مائة من الأمتار والفضل في هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة ، وهذه الفكرة التي اتبعها البناة في مسجد قرطبة ، عند زيادته في العصور التالية ، لم يكن لها نظير ، في أي بناء سابق .

ولهذا البناء المبتكر شأن كبير في العمارة الاسلامية ، فهو لم يكتف بهذا الابتكار وأضاف اليه ابتكار آخر ، ذلك ان الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه في البناء .

فاحتال على ذلك باستخدام الآجر ، ولكنه استعان على وجه جعل عقود مسجد قرطبة ، فريدة في التاريخ، تتناوب فيها ثمانية قطع من الحجارة البيضاء، مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر ، وكان لهذا مظهر زخرفي جميل ، انتشر في العمارة الاسلامية وآخذه عنها البناة في أوروبا في العصور الوسطى ، وهذا المظهر الزخرفي من غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب في الألوان ، لم يكن له نظير في أي بناء سابق وبالرغم من بساطة الفكرة ، ففضل ابتكارها يرجع إلى بناء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى .

فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهي الشبيهة بحدية الفرس ، وهي عقود ابتكرها الفن الاسلامي في عناصر العمارة ، وعم استعمالها في بلاد المغرب والأندلس ، حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة في هذه البلاد .

ونلقى من العقود في مسجد قرطبة أشكالاً أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء ، تجزأ العقد إلى ثلاثة فتحات ، أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من

الأزهار ترتسم في الفضاء ، وهذا عنصراً آخر من العمارة والزخارف ، يرجع الفضل إلى الفن الأندلسي ، في تنسيقه ونشره ، وكان هـذا العنصر محبباً إلى رجال الفن وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه في مكان الشرف من مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب ، وحول عقود قبته ، اننا قلما نلقى في العمارة الاسلامية عنصراً أجمل شكلا ، وأنقى حدوداً ، ولا شك في أن الفكرة الأولى في ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار ، فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاث أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر ، ولكن الهندسة تركت المجال للخيال فكأن هـذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوي في ارتقائها إلى القباب ، أو كأنها في الفضاء أهلة ، تعكس الضوء ، وتضيء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها ، من ناحية أخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجمع بأشكالها كلها ، بمثل الابداع الذي اجتمعت به ، في المقصوره المجاورة لمحراب قرطبة ، والتي تنسب اليوم ، إلى القديس فرناندو ، في هذه المقصورة ارتقت العمد ، الواحد فوق الآخر ، كما ارتفعت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر اين تبتديء ، وأين تنتهي ، ونلقي في الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدوة الفرس ، وأخرى على شكل ورقة الزهرة ، المقصوصة إلى ثلاثة وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعاً من العقود المسننة قصى كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام ، من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة ، ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لا يكاد يصدقه العقل ، إلا أن هـذا الخليفة ترك في مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف في تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً ، وأجمل مظهراً في قبة المحراب الذي أقامها هذا الخليفة ، وهي على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين مؤلله ، مهلله كأنها تيجان ، صيغ فيها ياقوت ومرجان ، وابداع هذه القبة يعجز عن وصفها فلم يترك البناء ولم يترك الفنان ، ركنا فيها أوسطحاً إلا وكساه حلية جميلة أو أضاف اليه عنصراً يزيده جمالاً . ان دلت هذه القبة على شيء فهي تدل على

سمة الخيال الفني عند البناء المسلم ، لقد استطاع أن يجعل من القباب وهي عنصر معماري شاق التنفيذ ، ثقيل التكوين، استطاع أن يجعل منها تاجاً محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة ، في هذه القبة ، وفي قبة مجاورة لها هيكلا جعل ما بين ضلوعه حشواً ، أو غلافاً رقيقاً ، هـذا الخيال الفني يرى الجمال في كل شيء ، ويرى الجمال في الخفة والحركة ، حتى في أشد العناصر تطلباً للثبات وفي أقربها للجمهور . ينصب الخيال عليها فيجزئها ، ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها، ويفرض على هذا كله فكرته في الطبيعة فكرة اللا نهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين انه « قد قوس أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالجرة مقرطق، وبقوس قزح ممنطق وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ، فقد قيل أن الحكم طلب من امبراطور بيزنطة أن يرسل اليه بفسيفساء يحلي بها المسجد فأرسل اليه الامبراطور ما أراد وارسل مع قطع الزجاج المذهبة عاملا عليما بسر تنسيقها، وان هـذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس فما لبثا ان تفوقا عليه في صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلي الأندلس مهارتهما في تعلم هذا الفن الجديد ، أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذي أحكم اطار المحراب ، وابدع تنسيقه وحلاّه بالرسم وجمّله بالكتابة أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أن يتعلم رصها بمهارة . وهو هذا العامل الأندلسي الذي أعد الجدار المحراب لوحات من الرخام منحوتة برقة فائقة ، ودقة ظاهرة تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، أو كأنها غلالة بديعة التطريز تتدلى على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفي كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحي أمامه ذكرى الجلال والعظمة ، والخـارج إلى

تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التي أحاطت بتجواله في الداخل ، ويرى في رسم العقود وجمال نسبها ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهي تكسو الجدران بثياب ثمينة ، وكان نقوشها توقيعات تحت السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر ، امام احدى البواباب التي ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله ، امتلاء المسطحات على بوابة أخرى فلا يقع نظره إلا على لون زاه أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو اطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع في مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها في حركة دائمة ، وتنوع مستمر يطرد الملل ويثير الاعجاب .

ومثار هذا الاعجاب باق على مضي السنين ، فمسجد قرطبة فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نلقي أثراً مثله ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها ، وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة على قول الشاعر .

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد ، أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق ، إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوروبا طابع الاسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الاسلامية ، لا يشيب وحدتها ، إلا ما أصابه من الهدم والاضافة عند سقوط قرطبة في ايدي الاسبان ، واقامة كنيسة في وسط بيت الصلاة ، لما رآها الامبراطور شارلمان ، حزن وغضب ، وقال للكهنة « أقمتم هنا ما يرى الناس مثله في كل مكان وهدمتم ما لا نظير له في العالم » .

وقد تعددت المساجد في الأندلس ، وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقر عنه في كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر في

مدينة الزهراء ، وهي التي أقامها عبد الرحمن الناصر ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، واستغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاماً ، وقدرت النفقة فيها ، بثلثمائة ألف دينار في كل عام ، وجلب اليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، وتضمنت العجيب من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كانمـــا أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص،لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها .

أشار المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة ، في وصف بدائعها ، وكشف عن آثارها منذ أعوام ، وقد قرأت لكم ما كتبه المؤرخون عنها ، وكتب أحد علماء الآثار في اسبانيا حديثاً، قال ،« أن الحفائر في مدينة الزهراء ،تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ما رواه المؤرخون » .

وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضـــع دورها ، وقصورها ، وبساتينها ، وجداولها، وبركها، وكثير مما تحدث عنده ابن خلدون وغيره من المؤرخين ، وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وانه ، لم يترك بها حائط ، إلا وألبس حلة من المرمر المسنون ، أو ألواحاً من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت ، بحيث تكون وحدها ، مجموعة شاملة للزخارف الاسلامية ، وأول ما يسترعي النظر فيها ، تصويرهـا للازهار والنباتات والثمار ، كأنما أراد رجال الأندلس أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة في بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها في دورهم ، فلا يفرغون من التأمل فيها .

ويدلنا هذا ، على ان الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ، فـلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر وادخال الروعة في القلوب، وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ، فقد اثبتوا أتباع الناس خلفاءهم ، في تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء ، وكانت الرحالة من المسلمين ، يضعون في الصف الأول ، فضائل البـلاد التي وصفوها ما كانت تظهر عليه مبانيها ، من العظمة والفخامة وجمال التنسيق

وحسن الهندسة ، ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس،وأطنبوا في ذكر آثارها، وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينها ، سرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن ، ما لم يتبق منه الا طرف تأويها المتاحف . أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعني ببنائه عناية تتضح من آثاره ، ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ، ومن درجة الاتقان والدقة التي صنعت بها،ومن الخفة البديعة التي أفرغت فيها.وقد أخذت يد الفنان تتلاعب في الخطوط بحرية كبيرة ،وأنصب الخيال عليها ، فجعل من الأقواس والخطوط ، شبكة ترتقي على الجدران ، كأنها أغصان وفروع، تتناثر منها الأوراق والأزهار ، وربط الخيال بالحقيقة، إذ أن الزخارف فرغت بالتخريم ، فنفذ اليها الهواء ، فكأنها أغصان ، تهتز ، وتتحرك ، بخفة ، وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة،إلى قصر الحمراء في غرناطة ،تجلى لنا الابداع بمظهر الثراء والفخامة ، ويخيل بحق أن هذا القصر ، صفوة ما أخرجه الفن الاسلامي في الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس ، مما كان يدور في هذا القصر ، من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلاطين، أقيم في القرن الرابع عشر، على عهد اسرة بني الأحمر، أو بني نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعه ، بالرغم مما لحقه في التعديل ، في العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا اينما حللنا به ، وإذا مررنا بقاعة السفراء ، انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف في كل مكان ، حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار في الأشجار ، تتساقط على العمد كأنها أغصان ، وترتقي العقود ، في قاعة الخلافة، فكأن الطير يسكنها ، وكأنه يغرد ، في كل مكان . وقد شبهت هذه العقود ، بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس في الأفراح . وما أحسب أن العمد في العمارة كانت يوماً ما أبدع مما نراها عليه ، في الأروقة المحيطة ببهو السباع ، ممشوقة المدن ، رفيعة القوام . ولعل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء ، وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف ، الذي بويع صبياً ، ودام حكمه ما يقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لاسرة بني نصر ، بالرغم من الدسائس

والثورات والحروب ، ونلقي صدى هذا الاستقرار ، في قصر الحمراء . اشتق هذا البهو اسمه من نافورة تتوسطه ، يقف عليها اثنا عشر تمثالاً من الرخـــام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجري من فوقـها وحولها ، بشكل يثير الاعجاب . وهذه النفافورة انموذج لما كانت تحـويه قصور الأندلس ، وهي لا شك أقل فخامة من كثير غيرها ، فقد كانت في قصر الزهراء ، الذي ذكرته في أول الحديث ، نافورة صغيرة منقوشة ، ومنحوت عليها واثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، ويقول المؤرخون ،ان هذه التماثيل الذهبية ، كانت صوراً لأثني عشر حيوان وطائر مختلفة ، وكان الماء يخرج من أفواهها .

وجمال هذا البهو في الأروقة المحيطة به ، والـتي تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها ، وطالت أطرافهــــا ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذي يجمع بين هذين الشكلين،وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ، ومزدوجة تارة أخـرى . وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ،وارتفعت من فوقها الحدائر، حملت عمداً صغيرة ، تنبت منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .

هذه الزخارف المتناهية رقة واتقاناً ، يزيدها جمالا : تنوع ألوانها ، مـن أحمر قاتم، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود. وبقصر الحمراء صور آدمية،رسمت على القباب ، تمثل احداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة مـن أساطير الحب ، وليس للتصوير في الاسلام نظير لهذه الصور .

ولكن الفن الاسلامي في الأندلس ، كان قد مثل الأشخاص قبل ذلـك ، بالتصوير والنحت ، مما اندثرت آثاره ، ولكنه مثلها أيضاً في تحف بديعة من العاج ، ويحاول العلماء أن يجدوا لهذه التحف أصلا اشتقت منه ، ووصلت به إلى هذه الدرجة من الاتقان ، وينتهي بهم البحث إلى الاعتراف بفضل ندين به إلى طائفة مجهولة من رجال الفن في الأندلس ، أبدعوا هذه الصناعة في القرنين العاشر، والحادي عشر الميلادي.وكان الثراء قد بلغ أقصاه في الأندلس في هذا

العصر ، وكانت القصور تغص بالتحف من كل نوع ، من أخشاب وأقمشة وزجاج ومعادن وخزف، وتحتفظ متاحف العالم بالكثير منها، وقد فاقت شهرة التحف المصنوعة من العاج ، كل ما عداها ، لأن لا نظائر لها في الفنون الأخرى .

وأهم هذه التحف صناديق ، وضعت للخلفاء والأمراء، وتعددت أشكالها، فهي تارة أسطوانية ، غطاؤها مقوس ، وأحياناً مستطيلة الشكل ، غطاؤها مسطح أو اهرامي . وتعددت زخارفها ، ففي صندوق من متحف اللوفر ، نحتت الحيوانات في غابة استبدلت بأشجارها الأزهار، واستعدت السباع لالتهام فريستها . وفي صندوق من متحف مدريد ، وقفت الطيور على الأغصان ، وانتشرت الأرانب بين النباتات . والغالب أن هذه الصناديق تحمل كتابة كوفية جميلة ، أرخت عليها سنة صناعتها .

ولا تقتصر أهمية هذه التحف على مادتها وزخارفها وأشكالها ، فصناعتها تدل على دقة فائقة ، إذا عرفنا انها قطع صغيرة ، لا يتعدى قطر معظمها ثمانية سنتيمترات . والعاج مادة رقيقة نادرة ثمينة ، تتطلب من الدقة الزيادة ، ومع ذلك ، فصناعة هذه التحف تشهد علاوة على الدقة ، بالجرأة والاعتزاز ، فقد حاول النحات أن يستخلص من هذه المادة الرقيقة ، أقصى ما يمكن أن تؤديه، وحاول أن يهيء من مسطحاتها المنبسطة، أشكالاً ، تعبر عن الأحجام والتجسيم . ونحن نعرف أن هذا ليس جديداً في الفنون الاسلامية ، وأن رجال الفن في العصور الفاطمية ، قد توصلوا إلى اتقان ذلك ، في لوحاتهم الخشبية المنحوتة ، ولكن النحت على الخشب غير النحت على العاج ، واستخدام لوحات كبيرة ، غير استخدام صفحات مصغرة ، والشغل على سطح مستقم ، غير الشغل على سطح مستدير ، والخشب سميك ولوحات العاج رقيقة ، كل هذا لم يمنع صناع العاج في الأندلس من أن يمثلوا الانسان والحيوان والنبات ، بشكل يؤدي فكرة التجسم ، وبطريقة التخريم ، التي تحيط الأشكال بظل قاتم ، يخيل إلى الناظر اليها ، أن الفضاء يحيط بها من كل جهة ، وأن جوف اللوحة فارغ يتخلله الهواء . ولم يصل الفن ، حتى في العصور الحديثة ، وبالرغم من اتقان آلات الصناعة ، إلى مثل الدقة والمهارة التي تنطق بها ، هذه التحف العاجية .

كانت جرأة هؤلاء الصناع اذن كبيرة ، في اختيار المادة التي أخرجوا منها هذه الصناديق ، وفي اختيار الطريقة التي اتخذوها أداة للتعبير عن فنهم، وكانت جرأتهم كذلك كبيرة ، في اختيار الأشكال والموضوعات. وقد رأينا أن أبدع ما أخرجوه هو في تمثيل الانسان والحيوان ، ولكنهم حرصوا أن لا يتعارض فنهم مع ما تمليه عليهم العقيده الدينية ، فالأشخاص ممثلة تحيط بها الطبيعة ، ولكنها تنحصر في اطارات هندسية تقربها إلى الخيال، وقد وضعت باحجام لا تصل إلى طول الاصبع الواحد ، فهي أبعد ما يكون عن محاكاة الخالق ، وقد صيغت من مادة، آلية إلى الزوال، مفتقره إلى الرم، منعدمة الروح والحياة.

أن الفن في الأندلس ، كما هو في جميع البلاد ، صورة نقية للجمال ، والحياة ، والمشاعر . هو صورة رفيعة للانسانية والمدنية . وانطوت صفحة المدنية في الأندلس ، ولكن بدائع الفن فيها ، قد نشرت هذه الصفحة ، وأحيت ذكرى ما كانت هذه المدنية عليه ، من مجد ، وفخامة ، ورخاء .

الحياة السياسية
في بلاد الهند في عهد الملوك والمماليك

الدكتور عصام الدين عبد الرؤوف
قطر

شهد العالم الاسلامي في تاريخه حكاماً من الترك، كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين، واشتغلوا بالجندية، وتدرجوا في سلمها حتى بلغوا مناصب رئيسية، وقد يحدث في حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافاً، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركي – الذي كان عبداً للسلطان المتوفي – بانتزاع السلطنة لنفسه، فسبكتكين كان مملوكاً لألبتكين ولما توفي سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه، وانفرد بحكم دولة سيده، ووضع أساس امبراطورية الغزنويين في جنوب غرب آسيا، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالي قرنين من الزمن، وعماد الدين زنكي أقام دولة في الموصل على أنقاض دوله سادته السلاجقة، وقد كان أتابكا لهم [١]، والمماليك في مصر أقاموا دولتهم بعد ضعف سادتهم سلاطين بني أيوب وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا، إذ أقام المماليك دولة في الهند بعد أن زالت دولة الغور، وظلت تحكم أربعاً وثمانين عاماً (١٢٠٦ م – ١٢٩٠ م) ويذكر لين بول [٢] في هذا الصدد: أن الجندي الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعها بما في ذلك منصب السلطنة. أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار، فكانت أوضاعهم بجمدة لا تتغير ولا تتبدل ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس، ويقفون منهم موقف المتفرج وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف: دول أتابكة الموصل والجزيرة ص ١٦١.

(٢) Medieval India

إيرانياً أو هندياً راجبوتياً [١] أو تركياً أو أفغانياً أو مغولياً ، ويسيرون حيث تسير بهم الحيـــاة ، كيفما أراد حكامهم الذين يهبونهم الحياة ، أو ينتزعون حقوقهم فيها .

وسلاطين امبراطورية المماليك في الهند كانوا أرقاء من أجنـــاس مختلفة وصلوا إلى ما وصلوا اليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم باقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة .

وقطب الدين أيبك — أو سلاطين المماليك في الهنـد — كان مملوكاً عند سيده شهاب الدين — سلطان دولة الفور [٢] الافغانية — (٥٩٩ هـ — ٦٠٢م) وهو تركستاني الأصل ، اشتراه قاضي نيسابور ، وأدبه وأحسن تأديبه ، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية ، ولما توفي هذا القاضي ، حمله أحد تجـار الرقيق إلى غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الفوري ، ولمس فيـه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق ، وعهد اليه بالعمل في الجيش كجندي ، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية في معركة تارين سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٥ م — وهي المعركة التي كانت بين سلطان الفور من ناحية ، والأمراء الراجبوتيين من ناحية أخرى — وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائباً له على ممتلكات الفور في الهند ، فأقام في دلهي وجعلهـا قاعدة لحكمه في بلاد الهند بدلاً من لاهور [٣] .

لم يأل قطب الدين أيبك جهداً في سبيل المحافظة على دولة الفور في بـــلاد

---

(١) ينتمي الأجراء الراجبوتيون إلى جحافل الآريين الذين هاجروا إلى الهنـد قبـل قبائل الهون البيض ، ولقـــد لعبوا دوراً كبيراً في تطور الحياة السياسية في بلاد الهند ، واشتهروا بالبطولة والفروسية، لذلك نسبت الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزاوج الشمس بالقمر، وظل الأمراء الراجبوتيون يسيطرون على شمال الهند حتى أضعفهم الفور ، فلجأوا إلى صحراء النار ، وعاشوا فيها ، وعرفت بعد ذلك باسمهم .

(٢) (Prasad : Medieval India . pp. 30 - 31)
21 Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 273.

(٣) Morel : A Short Hist. of India. p. 152

الهند ، بل عمـــل على ضم المزيد من أراضي الهند إلى دولة الغور ، ففي سنة ٥٩٣ هـ / ١٢٠٠ م استولى أيبك على كواليا ونهرواله ، وضم كالنجـــار[١] إلى حوزته كذلك امتلك بلاد البنغال ، وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور [٢] .

وبقي أيبـك على ولائه لدولة الغور حتى في أشد حالات ضعفها ، فلما ولي غياث الدين محمود – سلطنة الغور سنة ٥٦٢ هـ / ١٢٠٦ م لم يكن هناك اجمـاع على توليته ، فخرج عليه بعض مماليكه ، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه ، ومن بين هؤلاء المماليك ، تاج الدين يلدز الذي سيطر على غزنه ، وأقام الخطبة فيها لنفسه ، وخلع طاعة سلطان الغور[٣] ، بينما بقي قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الاسلامية في الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود ، وضبط الأمور في الهند وضرب بيد من حديـــد على المفسدين ، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغوري[٤] ، فأرسل إلى يلدز يقبح فعله ، ويأمره باقامة الخطبة للسلطان الغوري ، وهدده بالمسير اليه ومحاربته ، ان لم يعد إلى الولاء والطاعة ولما لم يستجب تاج الدين يلدز ، قام أيبك بالعمل على ضم غزنه إلى مملكة الغور ، وطرد يلدز منها [٥] .

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين ، وسيطر على غزنـــه وحكمها باسم علاء الدين محمـــد خوارزمشاه ، لكنه لم يلبث أن غادر غزنه خوفاً من أن يبطش به السلطان الخوارزمي الذي شك في اخلاصه[٦] ، وتوجه إلى البنجاب ، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك ، فسار أيبك اليه ، وما زال يطارده حتى غادر الهند [٧] .

---

(١) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 273

(٢) Ibid. p 273

(٣) Lane Poole : Medieval India. p. 54

(٤) Morel : A Short. Hist. of India. p. 152

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٣ هـ .

(٦) Lane Poole : Medieval India. p. 68

(٧) Munshi : The Struggle For Empire. p. 131

وبذلك انفرد أيبك بحكم الاقليم الاسلامي في الهند ، وأعلن نفسه سلطاناً في لاهور وأقيمت الخطبة له في بلاد الهند الاسلامية ، ونقش اسمه على السكة ، واتخذ من دلهي قاعدة لدولته .

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من مماليك شهاب الدين مثل التمش وقباجه ، وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة فزوج أخته إلى قباجه ، وابنته إلى التمش ، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه ، وعدم التصدي له [١] .

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين في الهند [٢] ، وتمكن هذا السلطان بفضل قدرته وشجاعته وكفاءته الادارية من بسط سيطرته على شمال الهند مدى العشرين عاماً التي حكمها [٣] ، وضبط الأمور في دولته وساس الهنادكة أحسن سياسة ، وضرب من حديد على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين ، وحكم الناس بالعدل ، وعمّ السلام ربوع دولته حتى قيل ان الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد في عهده وساوى في المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم ، وهذا أمر لم يتعودوه قبلاً [٤] .

عني قطب الدين بالعمارة ، ومن أبرز ما خلفه مسجده المشهور الذي بدأ تشييده سنة ١١٩١ م ، وأكمله التمش سنة ١٢٣٠ م [٥] ولا تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا ، وتسمى منارة قطب الدين ، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدم [٦] ، وعلى واجهة أحد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من

---

(١) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274

(٢) K. Ali. A New Hist. of Indo - Pakistan. pp. 47 - 48

(٣) A Short Hist. of Hind - Pakistan. Prepared by Pakistan History Boards.

(٤) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274

(٥) Lane Pool : Medieval India. p. 68

(٦) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 48

الحجر « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعو إلى دار السلام ... » ثم كتب تحت ذلك « جرت هذه العمارة بأمره ... » وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة . أما المنارة فكانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، أسس أيبك الطبقة الأولى ، وأقام التمش الطبقتين الثانية والثالثة ، وأتم خلفاؤه الباقي وفي كل طابق نقش على جدرانه آيات قرآنية ، وبعض المراسم السلطانية[١] .

توفي قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠ م وخلفه في الحكم ابنه آرام شاه وكان شاباً صغيراً لا يستطيع القيام بعبء الملك[٢] ، لذا عجز عن ادارة شؤون الدولة فاستدعى رجال الدولة التمش[٣] – وكان يلي حكم أحد الأقاليم الهندية، وذكرنا سابقاً أنه كان من مماليك شهاب الدين الغوري ، وزوجا لابنه قطب الدين أيبك – وطلبوا منه أن يلي السلطنة[٤] ، فقدم إلى دلهي ، وطرد آرام شاه منها ، وتربع على عرش السلطنة سنة ١٢١١ م[٥] .

يعتبر شمس الدين التمش المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في الهند ، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنه وحمله معه إلى الهند ، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة ، فجعله رئيساً لحرسه ، ثم أسند اليه حكم بعض ولايات الهند ، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغوري ، فقد كان التمش لأيبك[٦] .

بعد أن ولي شمس الدين التمش سلطنة دلهي ، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه ، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمح في الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت وفاة أيبك ، فاستولى قباجة على الملتان

---

(١) IBID. p. 48
(٢) Munshi : The Srruggle for Empire. p. 181
(٣) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 274
(٤) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 183
(٥) Lane Poole : Medieval India. p. 70
(٦) K. Ali : A New Hist. of Hind - Pakistan, 1/2 m 34

والسند ، وتنازع مع تاج الدين يلدز حول السيادة على لاهور كما أن خلفاء بختيار الخلجي سيطروا على بهار والبنغال يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن توليــه التمش السلطنة ، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هـــذه الاضطرابات والقلاقل واشتغال السلطان في قمعها وتحركوا لنيـل استقلالهم[1].

لم يقف شمس الدين التمش مكتوف اليـــدين ازاء موقف قواد قطب الدين أيبك الترك المناهض له ولحكمه ، والذين لم يرضوا أن ينصب عليهم سلطان هو في الواقع مملوك لمملوك [2] ، بل عوّل على اخضاعهم ، واشتبك معهم في معركة بالقرب من دلهي هزمهم فيها شر هزيمـة ، وأجبرهم على الدخول في طاعته [3] ، وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم التمش ، تاج الدين يلدز الذي سيطر على غزنه بعد انهيار دولة الغور ، وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لغزنه حتى اقترب من خوارزم ، وشن حملات ناجحة على أطراف الهند ، وعلى الرغم من أنه أقام الخطبة للسلطان الخوارزمي في غزنه ، إلا أن هذا السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له، وسار إلى غزنه سنة ١٢١٧ م لانتزاعها من يلدز، وطرد الأتراك منها [4] ، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند ، والتقى بناصر الدين قباجة – والي لاهور – والملتان وديبل ، وغيرها من قبل التمش – في معركة عنيفة ، هـزم فيها قباجة – واستولى على لاهور ، ثم زحف إلى مدينـة دلهي لانتزاعهـا من التمش ، فتصدى له السطان الهندي في معركة عنيفـة على الطريق إلى دلهي ، وهزمه وقتله في تارين سنة ١٢١٧ م [5] .

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين دأبوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية واستولوا على أقاليمهـــا ، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمـار . ولما توفي السلطان الخوارزمي علاء الدين

---

(١) A Short. Hist. of Hind - Pakistan. p. 134

(٢) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية جـ ١ ص ١٢٤ .

(٣) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 275

(٤) A Short Hist. of India. p. 134

(٥) K. Ali ; A New Hist. of Indo - Pakistan. pp. 49 - 50

محمد ، خلفه ابنه جلال الدين منكبرتي،وعوّل على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتدين ، فسار إلى خوارزم ، لكنه علم أن المغول قد استولوا عليها [1] ، لذلك اتجه إلى خراسان ، وتنقل بين بعض مدنها . ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المرابطة في خراسان في وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه ، فولى وجهه شطر غزنه ، وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلها المغول ، ورحب أهل غزنه بقدمه ورأوا فيه خير منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم ، والتقوا حوله ، ولما سمع الجند الخوارزمي المبعثرين بين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعة على حدود الهند بقدمه ، سارعوا اليه ودخلوا تحت لوائه ، وبذلك كثر جمعه ، وأصبح جيشه يضم ستين ألفاً من المشاة ، وسبعين ألفاً من الخيالة [2] ، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامي إلى استعادة دولة أبيه التي انتزعها المغول [3] ، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببروان Parvan في الشمال الشرقي من غزنه ، واشتبك مع المغول في قتال استمر ثلاثة أيام ، أحرز فيه على أعدائه انتصاراً رائعاً ، وقتل المسلمون من المغول كثيرين ، وشجع انتصار جلال الدين البلاد الاسلامية على الوقوف في وجه المغول ، فثار أهل هراة على والي المغول وقتلوه ، وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتي [4] .

لما علم جنكيزخان بانتصارات السلطان الخوارزمي على جنده ، وانضمام البلدان الاسلامية اليه،أعد جيشاً كبيراً للقضاء على جلال الدين منكبرتي وجنده وسار على رأس جيشه إلى كابل [5] ، والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمي في معركة ضارية ، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية ، وغنم المسلمون ما معهم وفكوا أسر الأسرى المسلمين ، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم ، ذلك أن خلافاً ما حدث بين بعض قادة جلال الدين

---

(١) براون : تاريخ الأدب الفارسي جـ ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٣) Cambridge Hist. of Iran. Vol. 5. p. 318

(٤) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276

(٥) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 135

منكبرتي فارق على أثره القائد التركي يغراجق جيش السلطان الخوارزمي واتجه إلى الهند وتبعه من الجند ثلاثون ألفاً كل يريدونه ، وحاول منكبرتي أن يثنيه عن عزمه وألح عليه ، بل بكى بين يديه ، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد في سبيله لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركي فتيلا ، فقد أصر على الانسحاب ، الأمر الذي أضعف الجيش الخوارزمي ، وأصبح عاجزاً عن الوقوف في وجه المغول [١] .

كل ذلك حدث بينما جنكيزخان يتجه بجحافله إلى الناحية التي يعسكر فيها جلال الدين وجنده ، لذلك لم ير السلطان الخوارزمي بدأً من الانسحاب والمسير إلى الهند ، ولما بلغ السند ، لم يجد من السفن ما يكفي لعبوره هو وقواته . وفي غضون ذلك أدركه جيش المغول ، ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسناً. فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم ، ونقصان عتادهم ، دبروا أمر العبور إلى الهند ، بينما عاد المغول إلى غزنه وامتلكوها وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة ما لا مزيد عليه في العبور حتى أنه بلغ الشاطىء الشرقي سالماً ومعه أربعة آلاف جندي كانوا حفاة عراة [٢] .

على أن جلال الدين منكبرتي ، لم يجد استجابة وقبولاً من دولة المماليك في الهند ، فقد توجس التمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين ، لذلك اصطدم جلال الدين بجند التمش في السنوات الثلاث التي قضاها في الهند ، وبدأ هذا الصدام مع قباجة — حاكم السند الذي حاول منعه من الاقامة في السند خوفاً من أن يتعقبه المغول ، ويطيحون به وبولايته ، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة وأحبط محاولاته ، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم إلى الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دلهي وأرسل إلى التمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الاقامة في دلهي ، لكن السلطان المملوكي اعتذر اليه بحجة أن حرارة الجو في دلهي لا تناسب الخوارزميين ذلك أن سلطان دلهي خشي أن ينضم

(١) Munshi : The Struggle. For Empire. p. 182

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٥٠ .

جند الترك في دولته إلى سلطان الخوارزميين، وطلب منه الانسحاب من دولته، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمي وجيش ألتمش بالقرب من دلهي، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما وفد اليه من جند أخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت اليه قبائل الكهكرية الناقمين على قباجة - حاكم السند - فازدادت قوته، وانتزع من والي السند بعض البلدان [١].

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقراً أو مقاماً، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ثم يستأنف الحرب ضدهم. وواتته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول فقد توفي جنكيزخان، وأعقبت وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التي تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية، فعبر نهر السند ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م، وقصد إيران، وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم، وظلوا يتعقبونه حتى قتل في كروستان سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م [٢].

لما غادر جلال الدين منكبرتي الهند أمن السلطان ألتمش على دولته من الخطر الخوارزمي، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أموراً داخلية تمس وحدة دولته، ومن أبرز هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجي - والي البنغال من قبله - عليه [٣] وأعلن استقلاله عن دلهي، وأقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة وتلقب بألقاب الملوك، وقوي أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دلهي [٤].

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية عن دولته وسار على رأس جيش قوي إلى البنغال، ولما رأى الأمير الخلجي عدم استطاعته

---

(١) Munshi : The Struggle for Empire. p. 182

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٢٦ .

(٣) Lane People : Medieval India . p. 74

(٤) K. Ali : A Short Hist. of Indo - Pakistan. pp. 50 - 51

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 183 - 184

الوقوف في وجه سلطان دلهي أعلن عردته إلى الولاء والطاعة له ، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه [١] ، إلا أنه لم يكن صادقاً في تعهده ، بل كان يزمع انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته ، فلما ابتعد السلطان ألتمش عن البنغال ، عاد وأعلن الاستقلال ، وسار إلى بهار واستولى عليها ، غير انه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا ، إذ سار اليه ناصر الدين محمد شـــاه – وإلى أوده من قبل أبيه السلطان ألتمش – وهاجم البنغـال ، وأوقـع الهزيمـة بالخلجي وأنصاره ، وأعاد سيطرة دلهي على اقليم البنغال [٢] .

على أن الأمور لم تستتب في امبراطورية الهند الاسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية في دلهي، ذلك أن قائداً آخر انتقض على سلطان دلهي ، وهو ناصر الدين قباجة ،وكان ألتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها عن دلهي ، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند ، لكن جـلال الدين منكبرتي اشتبك معه وانتزع منه أوكالا والملتان ، ولما انسحب السلطان الخوارزمي من الهند ، عاد قباجة وسيطر على هـذه البلاد ، وحكمها مستقلا عن سلطان دلهي ، فسار اليـه شمس الدين ألتمش ، بينما اتجـه واليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar [٣] ، وظل يتعقبه ، حتى سقط في نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فراراً من خصمه [٤] .

وبذلك قضى السلطان ألتمش على خصومـه ومنافسيه ، واكتسب حكمه الصفة الشرعية حينما أرسل اليه الخليفة العباسي المستنصر بالله تقليداً بحكم دولة الاسلام في الهنـد سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م [٥] ، ولقبــه « ناصر أمير المؤمنين ، حامي الايمان » وقدم السلطان ، الخليفة في الخطبة والسكة على نفسه ، وأبرز كذلك الألقاب التي منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التي سكها[٦].

---

(١) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134

(٢) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 156

(٣) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 57

(٤) Lane Poole . Medieval India . pp. 72 - 73

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. p. 134

(٦) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 276

ومما لا شك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دلهي أكسبه محبة وتقدير واحترام رعاياه المسلمين .

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش أثر كبير في تقوية دولته فخرج يقضي على ما تبقى من خصومه ، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك ، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكله الداخلية ، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم(١)،فسار اليهم ألتمش،واستعاد راثمبار وكذلك استرد ماندوار Mandawor في جبال السوالك وفي سنة ٦٢٩ هـ/ ١١٣١ م هاجم جواليار Guwalior ، وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها ، ثم سار إلى ملاوى واستردها كذلك ، واستولى على بهلسا Bhilsa وآجان Ajjan ، وعاد إلى الاشتباك مع الخلجيين الذين حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال ، وتقوية نفوذهم خصوصاً بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه – والي البنغال من قبل أبيه سلطان دلهي (٢) .

توفي ألتمش سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م بعد أن وطد نفوذ سلطان دلهي في دولة المماليك في الهند ، وخاض في سبيل ذلك حروباً كثيرة – كما ذكرنا – ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته ، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقي لسلطنة دلهي المملوكية (٣) .

ولم تمنع الغزوات المتكررة التي خاضها ألتمش ضد أعدائه ، لم تمنعه من اصلاح أحوال بلاده ، فأعاد تنظيم الجهاز الاداري وهو من هذه الزاويه يعتبر رجل دولة من الطراز الأول ، وقد كان الجهاز الاداري من قبله ينقصه التنظيم وحدد لكل إدارة أو مصلحة اختصاصها ، ورسم لها الخطة التي تسير عليها وبذلك سارت الأعمال الحكومية في عهده بدقة(٤) كذلك حرص السلطان ألتمش على اقرار العدالة في بلاده ، ورفع الظلم عن رعاياه ، وباشر بنفسه أمر اقرار

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 135

(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan. p. 52

(٣) Ibid. P. 52

(٤) Morel : A Short Hist. of India. p. 160

العدل ورفع الظلم . ولتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمه يلبس ثوب مصبوغ، يميزه عن لباس أهل الهند الأبيض ، فكان متى جلس للناس أو ركب ، ورأى أحداً يرتدي ثوباً مصبوغاً استدعاه اليه ونظر في شكواه ، ورفع عنه مظلمته ، ولكي يتيح الفرصة لأصحاب المظالم برفع شكواهم اليه أثناء وجوده في داخل قصره ، أقام على باب قصره تمثـــالين لأسدين موضوعين على برجين وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيها جرس كبير ، يدقـه المتظلم ، وحينئذ يسمع السلطان بمثوله بين يديه، ويستمع اليه ، وينظر في أمره[1] .وعني ألتمش بتشجيع العلوم والآداب ، وأنفق أموالاً كثيرة في كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون في متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها ، وأسس العديد من المدارس وزيّن بلاطه بالشعراء والعلمـاء ، وجعل عاصمته مركزاً هامـاً للعلوم والآداب كذلك أولى الفن المعماري عناية كبيرة ، فأتم بناء مسجد قطب الدين في دلهي، وشيد مسجداً آخر في آجمير[2] .

بوفاة ألتمش يكون قد بقي من عمر سلطنة المماليك في دلهي ثلاثين سنة أثقلت المشاكل كاهلها في خلالها حتى عصفت في النهاية بذلك الصرح الضخم الذي بذل ألتمش جهوداً كبيرة في سبيل تشييده . ومن الأمور التي أضعفت هـذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا عن إدارة شؤون الدولة ، والمنازعات الشديدة التي قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة[3] .

وتفصيل ذلك أن ألتمش عهد إلي ابنته رضية بالحكم من بعده[4] ، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمود توفي في البنغال،وحاول ألتمش تدريب ابنته رضيه على إدارة شؤون الدولة ، وعهد اليها بمباشرة سلطاته أثناء غيابـــه عن دلهي تمهيداً لتوليتها السلطنة من بعده . على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها[5]،ودبروا أمر خلعها،واستدعوا أخاها فيروزمن

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 136

(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan p. 53

(٣) Munshi : The Struggle for Epmire. p. 186

(٤) Morel : A Short Hist. of India. p. 160

(٥) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India. p. 277

لاهور وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دلهي بدلاً من أخته، فسار فيروز إلى دلهي، ومكنه رجال الدولة من تولي الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية . على أن هـذا السلطان الجديد لم يستطع ادارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة، بل انصرف إلى اللهو والعبث، وترك مقاليد الأمور في يد أمه شاه تركان، وهي امرأة حقودة وضيعة النشأة وسارت سيرة سيئة في الحكم . لذلك حدثت في الدولة الكثيرمن القلاقل والثورات والفتن، وعوّل حكام الملتـان ولاهور وهانسي وبداون Budaun واوده على انهـاء هـذا الحكم الفاسد، وتحركوا إلى دلهي فعلاً[١]، ففر فيروز من دلهي، وتبعه جنده، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة لكنه لم يستطع الاشتباك معهم في قتـال، ذلك أن جنده انفضوا من حوله، وعادوا إلى دلهي، وأعلنوا خلع فيروز، وتولية رضية، وقبض على فيروز، وزج في السجن [٢] .

على أن هـــذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دلهي، إذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم، وحاصروا دلهي فعلاً وقطعوا عنهـا سبل الاتصال بالولايات التابعة لها، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة في سحق هؤلاء المناوئين لها[٣] فعلى الرغم من أنهـا كانت في قلّـة من الجند[٤]، فإنها استطاعت اضعاف أعدائها الأمراء المحاصرين للعاصمة، وذلك ببذر بذور الشقاق بينهم عندئذ واتتها الفرصة للتخلص من أعدائها وهزيمتهم[٥]، وردهم على أعقابهم خاسرين وأصبحت سلطانة الامبراطورية بلا منازع، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع [٦] دولتها .

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال في أعمالها وتصرفاتها، حتى

---

(١) A Short Hist. of Hind - Pakistan. p. 136

(٢) Munshi : The Struggle for Empire. p. 186

(٣) Ibid. p. 187

(٤) Lane Poole : Medieval India. p. 73

(٥) Ma Jumdar : An Advanced Hist. of India p. 27

(٦) Lane Poole ; Medieval India. pp. 74 - 75

تضفي على نفسها الهيبة أمام الناس ، فتزيت بزي الرجال ، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها ، وشاهدها الناس وهي تركب الفيل على رأس جيشها ، إلا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذي رفع ألتمش من شأنهم ، وقربهم اليه ، وأسند اليهم الأمور الهامة في الدولة [١] ، وأبعدتهم عن التدخـــل في شؤون الحكم ، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها وسوء نواياهم نحوها [٢] .

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجـــل حبشي يعمل أميراً للخيل في بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت [٣] ، وأسندت اليـــه قيادة الجيش بل همت به ، وهم بها، وتزوجت منه فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخاص منها ، أو على الأقل تقليص نفوذها ، وقادها ايتيكين – أمير حاجب – لكن رضية أحبطت المؤامرة ، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد ، اذ أعلن حاكم البنجاب الثورة ، فسحقت رضية تمرده [٤] ، أمـــا اختيار الدين التونيا Altunia – حاكم بهاتندا – فقد رفع هو الآخر راية العصيان ، وقادت رضية جيشاً لمحاربته ، لكنه هزمها وأسرها [٥] وقتل ياقوت ، وبينما هي بعيدة عن العاصمة ، وإذا بالأمراء الترك في دلهي يعلنون عزلها ، ويولون بدلاً منهـــا معز الدين بهرام بن ألتمش .

ولمـا ولي بهرام شاه سلطنة دلهي لم يستطع الانفراد بالحكم لضعفـه بل اضطر إلى الخضوع للأمراء الترك ، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحـد منهم هو وزيره اختيار الدين ايتيكين الذي قبض على الأمـور في الدولـة دون السـلطان ، ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذي جعـله اسماً فقط ، فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله ، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه [٦] .

---

(١) Munshi , The Struggle for Empire. p. 188
(٢) K. Ali : A New Hist. of Indo Pakistan p. 55
(٣) Ma Jumdar : An Advanced. Hitt. of India. p. 279
(٤) Munshi : The Struggle for Empire. p. 188
(٥) A Short Hist. of Hind - Pakis.an. p. 136
(٦) K. Ali : A Short History of Indo Pakistan. p. 55

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا ، ذلك أن – بدر الدين سنقر – أمير حاجب – سيطر على أمور الدولة[1] ، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه ، فقد انتهز ألتونيا – حاكم بهاتندا – فرصة مقتل ايتيكين ، وعوّل على المسير إلى دلهي ، والتربع على عرش السلطنة ، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته – رضية – وتزوج منها[2] ، ورأى أن ذلك يعطيه الحق في تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطنة ، وتقدم الاثنان إلى دلهي ، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا ، وشتت شملهم ، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة ، واغتالوها[3]. وبذلك فشلت هذه المؤامرة . على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، شجعت العلوم والآداب [4] ، وكانت تتجول في الأسواق في زي الرجال وتجلس إلى الناس ، وتستمع إلى شكاواهم ، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر – ملكة مصر الشجاعة التي قامت بدور كبير في صد لويس التاسع – ملك فرنسا – عن مصر في الحملة الصليبية السابعة ، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفي أثناء معركة المنصورة ، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور في مصر حتى قدم توران شاه بن الملك الصالح ، وخلف أباه في الملك .

لم تستتب الأمور في دلهي باحباط مؤامرة أمير بهاتندا ورضية ، ذلك أن أمير حاجب ظل قابضاً على زمام الأمور في الدولة .

وبينما تسير الدولة في طريق الاضطراب ، واجهت خطراً آخر ليس من الداخل ولكن من الخارج ، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١ ، فقاد أمير حاجب جيشاً إلى لاهور لوقف تقدم المغول [5] ، غير انه لم

---

(١) Lane Poole : Medieval India. p. 76

(٢) Munshi : The Struggle for Empire. p. 189

(٣) A Short History of Hind - Pakistan. p. 139

(٤) Ma Jumdar : An Advanced History of India. p. 279

(٥) Munshi : The Struggle for Empire. p. 189

يلبث أن توجس خيفة من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدي إلى تآمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده ، وعزله عن منصبه ، ومنعه من دخول دلهي ، وانضم اليه الجيش في اعلان التمرد والعصيان على السلطان ، فأرسل اليه بهرام شاه رسولاً من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضي قدماً في طريق الجهاد في سبيل الله ، لكن الشيخ الرسول لم يقم بالواجب الذي كلفه به السلطان ، بل انضم إلى الثوار ، وعادوا جميعاً إلى دلهي ، وتركوا المغول يهاجمون لاهور [١] .

أعدّ السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه ، لكن رجال أمير حاجب داخل دلهي ساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة ، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢ م ، وولوا بدلاً منه علاء الدين مسعود — حفيد ألتمش — وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة [٢] .

لم يكن علاء الدين مسعود أسعد حظاً من سابقه ، فقد فوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين ، وجعله نائباً ووزيراً له ، لكنه استبد بالسلطنة دونه ، وأسند الوظائف الادارية الهامة في الدولة إلى أعوانه ، وتآمر السلطان على وزيره وقتله ، وعهد إلى نجم الدين أبو بكر بمنصب نائب السلطان ، وعين بلبن في منصب حاجب الحجاب [٣] .

واجه بلبن صعاباً جسيمة في ضبط أمور الدولة ، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها ، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دلهي ، وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضاً ، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف اليها ، وبلغ من ضعف السلطنة المركزية أن أمراء الولايات الغربية استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها دلهي لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم [٤] .

---

(١) Ibid : p. 190

(٢) Ibid ; p. 190

(٣) Ma Jumdar : An Advanced History of India. p. 279

(٤) Munshi , The Struggle for Empire. p. 191

على أن بلبن لم يستطع أن يمضي في تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف اقصاءه عن الحكم، ذلك ان الهنادكة عولوا على اقصاء العناصر التركية عن ادارة أمور الدولة، والحلول محلهم وقاد هذه الحركة عماد الدين ريحان الذي ولي منصب وكيل الدار، وأفلح في اقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم (١) — وبذلك حل النفوذ الهندوكي محل النفوذ التركي في سلطنة المماليك بدلهي .

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بادارة شؤون حكومة دلهي ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اغتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة في دلهي، وعقدوا العزم على إعادة بلبن، وانضم اليه الكثيرون من حكام الولايات الترك، وطلبوا من السلطان اعادة بلبن (٢)، وعزل ريحان، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة، فخرج السلطان من عاصمته دلهي لسحق تمرد الثوار، لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دلهي، وأعادوا بلبن إلى الوزارة، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤ م، وأحسن أهالي العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين (٣) .

واجه بلبن مشاكل متعددة لاقرار الأمور في الدولة، فالبلاد مضطربة، والثورات متعددة في الامبراطورية، وخصوصاً قبائل المواتى وأصبحت البلاد تعيش في فوضى شاملة لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة دلهي، والقضاء على الفتن في الولايات التابعة لها، وقد فوض اليه السلطان كل هذه الشؤون، بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدراويش (٤) .

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة في إدارة شؤون الدولة وإعادة الهدوء اليها، فقضى على الفتن الداخلية، وأخضع الكهكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثيرة للشغب والفوضى، وزحف إلى الدوآب Doab وأخضع الأمراء الهنادكة الثائرين

---

(١) Ibid : P. 192

(٢) Ma Jumdar, An Advanced History of India. p. 280

(٣) Munshi : The Struggle for Empire. pp. 192 - 193

(٤) K. Ali : A New History of Indo - Pakistan. p. 59

بها كما أعاد أوده والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دلهي (١) .

على أن أبرز مواقف هـذا الرجل البطولية تجلت في مقاومته لغزو المغول للهند سنة ١٢٤٥م، فقد هاجموا السند، وضيقوا الحصار على حصن أوكا، فتصدى لهم بلبن ، واشتبك معهم في قتال مرير أوقع بهم هزيمة كبيرة ، وردهم على أعقابهم خاسرين وأنقذ ما وقع في أيديهم من أسرى المسلمين . ذلك أن المغول منذ عهد أوكتاي بن جنكيزخان اتجهوا إلى غزو السند وخصوصاً سنة ١٢٢٩م وفي سنة ١٢٤١ م مدوا نفوذهم إلى لاهور، ودمر المغول البلدة ثم انسحبوا منها وفي سنة ١٢٤٧ م أجبر المغول حاكم لاهور – بعد أن فقد كل مساعدة من جانب دلهي – على دفع الجزية للمغول ، وقبل نوعاً من التبعية لهم ، كذلك بسط المغول سيطرتهم على أوكا والملتان ، لكن بلبن استرد هاتين المدينتين بعد أن انسحب منها المغول (٢) .

توقف المغول عن محاولة الهجوم على امبراطورية المماليك في الهند على أثر تحسن العلاقات بين بلبن وهولاكو الذي أرسل سفارة إلى دلهي محملة بالهدايا واتفق الطرفان على احترام السيادة الاقليمية لكل منهما ، وانسحب المغول من البلاد الهندية التي كانوا قـد احتلوها ، كما عزل بلبن حكام الولايات الذين خضعوا للمغول (٣) ، وبذلك أمنت بلاد الهند الغربية من خطر المغول ، وعادت سيطرة دلهي على هذه المنطقة (٤) .

توفي ناصر الدين محمود بعد حكم دام عشرين عاماً ، وكان عادلاً كريماً زاهداً متديناً، يرعى العلوم والآداب ، وقد عهد إلى أبي عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة في بلاطه ، ووضع هذا العالم مؤلفاً كبيراً أهداه للسلطان ، أسماه « طبقات ناصري » وكافأه السلطان مكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير . ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشة الزهد ، وكان يقتات من عمل يده ، إذ كان ينسخ المصاحف ويبيعها ، ويغطي بما يرد اليه من هذا العمل نفقاته الخاصة

---

(١) Munshi : The Struggle for Empire. p. 193

(٢) Munshi : The Struggle for Empire pp. 192 - 193

(٣) K. Ali : A New History of Indo - Pakistan. p. 59

(٤) Munshi : The Struggle for Empire p. 193

كذلك لم يتخذ خدماً في بيته ، إنما كانت زوجته تباشر الشؤون المنزلية بنفسها بما في ذلك اعداد الطعام .

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلى المناصب في امبراطورية المماليك في عهد ناصر الدين محمود ، ولعب دوراً هاماً في تاريخ سلطنة دلهي المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو في حقيقته حلقة من تاريخ بلبن ، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبناء ذكور ، وتزوج بلبن من ابنة ناصر الدين محمود ، الأمر الذي يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦ م ، وكان قد جاوز الستين من العمر (١) .

ينتمي بلبن إلى قبيلة تركية ، كان أبوه من شيوخها ، ووقع بلبن في أسر المغول ، واشتراه الخواجة جمال الدين في البصرة ، وبيع في دلهي إلى ألتمش (٢) ، وظهرت شجاعته ومقدرته في سلك الجندية ، فأدخله ألتمش في جماعة حرسه ، ولما وليت رضية السلطنة ، أسندت اليه منصب أمير الصيد (٣) ، وأدرك بهرام شاه شجاعته واقدامه ، فولاه بعض الولايات ، فأحسن إدارتها وأعاد اليها الهدوء والاستقرار ، وراجت فيها الزراعة ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة (٤) – كما رأينا .

واجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التي واجهها في عهد ناصرالدين محمود ، فالبلاد مضطربة ، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية فبدأ بتقوية السلطة المركزية ، وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته ، وذلك بأن جعل بلاطه قوياً فخماً كما كان أيام ملوك الفرس القدامى ، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد ، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن (٥) نظام وأضعف من شأن القادة

---

(١) Ibid. p. 194

(٢) A. Ali, A New History of India - Pakistan p. 59

(٣) Morel, A Short. History of India. p. 160

(٤) Ma Jumdar An Advanced History of India p. 281

(٥) Morel, A Short History of India. p. 181

المماليك ـ موالي ألتمش ـ وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التي تستهدف تقوية نفوذهم في الدولة على حساب السلطان [١] .

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة وإعـادة الأمن والنظـام إلى ربوعها [٢] ، ولتحقيق ذلك أعـد جهازاً قويـاً للجاسوسية ، يحيطه علماً بكل أخبـار الادارات والمصالح الحكومية ، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين ، وهؤلاء الجواسيس يراقبون كل مصالح الدولة بما في ذلك الجيش وبلاط السلطان وحتى أبنائه ، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس في عملهم ، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون في عمله أو في تأدية الواجب المكلف به ، ولم يلتزم بالدقة في جميع الأخبار ، أو لا يصدق في تبليغها ، وبلغ من حرصه على اقرار العدالة ، ومنع الظلم أن أحـداً كان لا يجرؤ على ايذاء خدمه ومماليكه [٣] .

بعد أن أعاد بلبن تنظيم ادارة الدولة ، وأعاد إلى حكومة دلهي هيبتهـا ، اتجه إلى القضاء على الفتن الداخلية في الدولة ، فضرب بيد من حديد على أهـالي مواتي ، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته ، فلما ولي السلطنة قطعوا الطـرق ، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضر والأذى خصوصاً في بهار [٤] ، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء ، واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دلهي فخرج بلبن من دلهي ، وسار على رأس جيشه لاخضاعهم وهاجمهم هجوماً عنيفاً ، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم [٥] ، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال الـتي كانوا يحتمون بها ، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم ، وقتل قائدهم ، ورأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام في الدولة ، فأقـام الحصون في مختلف البلاد ، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطرق [٦] ،

---

(١) Munshi, The Struggle for Empire. p. 199
(٢) Lane Poole, Medieval India. p. 81
(٣) K. Ali, A New History of Indo - Pakistan. p. 59
(٤) A. Short History of India - Pakistan p. 140
(٥) K. Ali, A New History of Indo - Pakistan. p. 61
(٦) Ibid. p. 62

وحوّل المناطق التي استأصل منها الغابات إلى أرض زراعية يقيم فيها جند لحراستها من عبث العابثين [1] وبذلك استتب الأمن والنظام في الدولة .

كذلك تعرضت سلطنة المماليك في الهند لخطر آخر من جانب الهندوس في الدوآب ، ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دلهي والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا ، وقبض عليهم وأسرهم .

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا على توليته الحكم وسعوا إلى الخلاص منه ، وكان سلطانهم قد قوي في عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الاقطاعات الكبيرة ، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية ، وأمعن في عقابهم وقتل كثيراً منهم ، وتخلص من هذه الفئة كلية [2] . وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطاناً قوياً مهاباً يرعى جانبه رجال الدولة ، ويخشون بأسه .

لم يكد بلبن ينتهي من مشاكله الداخلية ، حتى واجه خطراً خارجياً جسيماً ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد بلاده بعد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكو خان ، واستولوا على بغداد — حاضرة بني العباس — وقتلوا المستعصم [3] سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٤ م ، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن ثروتها ، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده ، وبقي في دلهي لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه ، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول ، ولا تقاس ما قاسته بغداد من ويلات [4] ، وأعاد بناء القلاع التي دمرت على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة . وأقام تحصينات جديدة مزوده بالجند والسلاح ، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات ، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكماً على الملتان ، ووضع ابنه الآخر بغراخان على حراسة سمنه وسنام [5] .

---

(١) Lane Poole, Medieval India. p. 84

(٢) Lane Poole, Medieval India. p. 84

(٣) Ma Jumdar, An Advanced Hist. of India p. 281

(٤) Lane Poole, Medieval India. p. 85

(٥) Munshi, The Struggle for Empire. pp. 194 - 195

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير في درء خطر المغول عن ديار الهند ، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩ م ، تعقبهم محمد وهزمهم ، ودفع خطرهم عن بلاد الهند . وبذلك سلمت سلطنة المماليك في الهند من خطر المغول وويلاتهم .

على أن انشغال الحكومة الهندية في الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية ، ذلك أن البنغال بقيادة واليها طغرل عادت إلى محاولة الاستقلال عن دلهي ، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين ، وأمره باقامة الخطبة باسمه ، ونقش اسمه على السكة بدلاً من بلبن ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة أميرخان لاخضاع طغرل وإعادة البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية ، لكن طغرل هزم القائد الهندوكي ، وغضب بلبن من قائده ، وحمله مسؤوليه الهزيمة التي لحقت به ، وحكم عليه بالاعدام [١] ، وأرسل جيشاً آخر إلى البنغال لسحق تمرد طغرل ، لكن هذا الجيش لقي مصير سابقه عندئذ لم ير السلطان بلبن بدأ من المسير بنفسه إلى البنغال لاعادتها إلى حوزته وصحبه ابنه بفراخان ، وحينما اقترب السلطان من البنغال ، أخذ طغرل الجزع والفزع ، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال في جاجنكر ، وأرسل السلطان فرقة من الجيش لتعقب المتمردين ، وعثروا عليهم فعلاً ، وشاهدوهم يشربون ويلهون ، والفيلة تتجول بين الأشجار ، والخيول والمواشي تتغذى على النباتات ، فباغتوهم على حين غفلة منهم ، ومـا زالوا بهم حتى أبادوهم عن آخرهم ، وقتلوا زعيمهم طغرل [٢] .

بعد ذلك اتجـه السلطان إلى لكمانتي ، وكانت تؤيد طغرل في ثورته ضد دلهي فاختفى أغلب أعيانها ، خوفاً من بطش السلطان لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين [٣] . وبذلك عادت البنغال إلى الولاء والطاعة للسلطان بلبن ، ولكي يضمن السلطان بقاء البنغال على الولاء لدلهي ، عهد إلى ابنه بفراخان بحكم البنغال وحكم بفراخان وأعقابه البنغال أكثر من نصف قرن [٤] .

---

(١) K. Ali. A New Hist. of Indo - Pakistan p. 62

(٢) Ma Jumdar An Advanced Hist. of India p. 283

(٣) Lane Poole : Medieval India pp. 87 - 88

(٤) Morel : A Short Hist. of India p. 161

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دلهي ، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخلجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دلهي وبلادهم ، فضلاً عن المسافة ، وانتشار الأوبئة فيها[١]، وبذل ألتمش جهوداً كبيرة في اخضاع البنغال وحذا طغرل – كما رأينا – حذو الخلجيين في محاولة الاستقلال عن دلهي منتهزاً فرصة انشغال السلطان بلبن في مشاكل الدولة الداخلية والخارجية [٢] .

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة ، فقد توفي ابنه محمود وهو يقاتل المغول [٣] ولم يحتمل صدمة موت ابنه ، وتوفي بعدها في سنة ١٢٨٧ م بعد حكم دام أربعين سنة [٤] .

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند في تاريخها الوسيط، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التي واجهته ، إذ وقف في وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه ، وقهر العصاة والمفسدين ، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد [٥] واشتد في معاقبة الخارجين على القانون والعدالة ، واتخذ لنفسه – كما ذكرنا – بلاطاً مهيباً له مراسم معينة ، ورجال يرتدون أزياء معينة ، ومظاهر خاصة ، واتخذ رجال أكفاء في إدارة شؤون الدولة ، على أنه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية ،ولم يأل جهداً في سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة [٦] ، وإقرار العدالة ، وبنى داراً أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه ، وتخفيف أعباء الحياة عليهم ،وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون ، وإذا كان قد أبعد الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية ، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية في وقت تواجه الدولة فيه خطراً خارجياً .

---

(١) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية جـ ١ ص ١٤٨ .

(٢) Munshi : The Struggle for Empire p. 154

(٣) A Short Hist. of Hind - Pakistan p. 141

(٤) K. Ali : A New Hist. of Indo - Pakistan p. 65

(٥) Lane Poole : Medieval India. p. 87

(٦) Munshi : The Struggle For Empire. pp. 157 - 158

ولم يأل بلبن جهداً في سبيل رعاية الفنون والآداب ، وحرص على رفع شأن مجتمعه [1] ، فشجع الناس على التحلي بتعاليم الاسلام ، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندي حتى أن المؤرخين يعزون اليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندي من تقاليد رفيعة [2] .

ومما يجدر ذكره أن السلطان أكرم وفادة الشخصيات الاسلامية الكبيرة التي لجأت إلى الهند فراراً من بطش وجور المغول ، وكان من بين هؤلاء فريق من بني العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم وقد أنزل كل فريق منهم في حصن خاص ، سمي بإسمه ، مثل محلة عباس محلة خوارزمي ، محلة ديلمي ، محلة سنجرى ... الخ .

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخان بتولي الحكم من بعده ، لكن بغراخان رفض ، وآثر البقاء في البنغال ، لذلك عهد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده ، وتولى كيخسرو السلطنة في دلهي سنة ١٢٨٧ م [3] ، وكان ضعيفاً لا يستطيع القيام بأعباء الحكم ، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحاً استبد بأمور الدولة دون السلطان ، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث ، وأسند المناصب الرئيسية في الدولة إلى رجاله المقربين [4] .

على أن بغراخان — حاكم البنغال — ساءه ما علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان ، وعقد معه لقاءاً سنوياً حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة سلطته الحقيقية وأن يستعيد سيرة بلبن في الحكم ، ويباشر مسؤولياته بنفسه ، ونفذ للسلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله [5] .

---

(١) Prasad : Medieval India. pp. 171 - 172

(٢) Ma Jumdar, An advanced Hist. of India p. 284

(٣) Muushi, The Struggle for Empire. p. 158

(٤) A Short Hist. of Hind - Pakistan p. 144

(٥) Lane Poole, Medieval India pp. 87 - 88

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالحكم طويلاً ، فقد تعرض لمؤامرة أخرى من جانب الأمراء الترك ، إذ قاموا بعزل السلطان وتولية كيقباو – أحد أطفاله الصغار السلطنة [١] – حتى يتيسر لهم الاستبداد بأمور الدولة .

استاء الأمـراء الخلجيون من اضطراب أمور الدولة [٢] ، وجدير بالذكر أن للخلجيين فضـل كبير في اتمام الفتوحات الاسلامية في البنغال والاتجـاه شرقاً [٣] ، وكان الخلجيون يشغلون مناصب كبيرة في دولة المماليك وتوجهوا إلى العاصمة دلهي بقيادة زعيمهم جلال الدين فيروز [٤] ، وهزموا القوادالأتراك وعزلوا السلطان الطفل ، وأعلن الخلجي نفسه سلطانـاً ، وكان ذلك سنة ١٢٩٠ م ، وبذلك انتهى حكم سلاطين المماليك في الهند .

والخلاصة أن سلاطين المماليك حكموا الهند أربعاً وثمانين عاماً من ١٢٠٦ – ١٢٩٠ م وكان عددهم أحـد عشر سلطاناً ، ومن أبرزهم قطب الدين أيبك وشمس الدين ألتمش وبلبن ، يأتي بعدهم في الأهمية رضية وناصر الدين محمود ، والباقي سلاطين ضعاف واشتملت امبراطورية المماليك على شمال الهند وولاياتها كانت آجره وأوده وبهار وجاولار والسند ، وبعض أجزاء من الراجبوتانا ووسط الهند والبنغال .

(١) Lane Poole , medieval India pp. 87 - 88
(٢) Morel, Ashcrt Hist. of India p. 161
(٣) Ma Jumdar, An advanced Hist. of India p. 285
(٤) A short Hist. of Hind - Pakistan p. 141
(٥) Prasad, Medieval India pp. 171 - 172

المطهر بن محمد الجرموزي ومؤلفاته عن الدولة القاسمية

دكتور عبد الله بن حامد الحبيد
جامعة الرياض
قسم التاريخ / كلية الآداب

ولد المطهر بن محمد الجرموزي في جمادي الآخرة سنة ١٠٠٣ هـ وتوفي في ذي الحجة ١٠٧٧ هـ (١) ويبدو أن مطولات التراجم اليمنية قد أغفلته فهم لم يظهر في مطلع البدور ومجمع البحور لصديقه القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال ، وأظن الأخير لم يترجم إلا للذين تفقهوا في مذهب الزيدية ، هذا بالرغم من أن صفة العلامة للجرموزي قد ظهرت بعد العنوان في كتابه الجوهرة المضيئة . كما أن محمد بن علي الشوكاني لم يترجم له في كتابه البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وانما هناك تعليق لنسابة اليمن ومؤرخها السيد محمد بن محمد زبارة في هامش البدر الطالع جـ ٢ ص ١٨٣ توضيحاً لما كتبه الشوكاني عن ابن المطهر الجرموزي - جعفر - مردداً ما قاله المؤرخ والمعاصر للمطهر الجرموزي يحيى ابن الحسين بن القاسم في تاريخه بهجة الزمن ، من أن المطهر كان متولياً لبلاد عتمه من أول دولة الامام المؤيد بالله محمد بن القاسم من عند استفتاحه لهـا ، واستمر المذكور متولياً لها إلى تاريخ وفاته في سادس شهر الحجة ١٠٧٦ هـ (٢) .

غير أن هناك ترجمة قصيرة له أوردها محمد المحبي في الجزء الرابع من كتابه

---

(١) المحبي ، محمد ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر جـ ٤ ص ٤٠٦ بيروت .

(٢) الشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ١ ص ١٨٣ القاهرة ١٣٤٨ هـ يوجد هنا فرق سنه في حياة الجرموزي فيما دونه المهلا ويحي بن الحسن .

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ص ٤٠٦ ، نقلا عن القاضي حسين المهلا ويبدو أن هذه الترجمة في كتاب الأخير بعنوان النفحة حيث ذكر أن المطهر الجرموزي كان من أعيان الدهر وأفراد العصر علماً وعملاً، ونباهة وفضلاً، كما ذكر أن له التاريخ الذي جمع فيه أحوال الأئمة الثلاثة : الامام القاسم وولديه محمد المؤيد ، واسماعيل المتوكل الذي ذكر فيه كثيراً من وقائعهم ، وسيرهم وأحوالهم ومكاتباتهم ، وقد أتت معرفة المهلا للجرموزي من أن الأخير كان صديقاً لوالده ، ودارت بينهما مراسلات ، كما أن المترجم كان صديقاً لأولاد المطهر ولذلك فقد ترجم لهم في كتابه النفحة كأدباء [٣] .

غير أن المتتبع لمؤلف الجرموزي الثاني وهو الجوهرة المضيئة ، وهو سيرة الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد ان ذكر كثيراً عن نفسه كمستشار للامام المؤيد وكحاكم لاقليم عتمه . وكذلك نجد أنه يتحدث عن نفسه في مؤلفه الثالث سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم كمتصل بالامام فهو يقول : وفي العام المذكور أراد الامام عليه السلام كما أخبرني بذلك مكاتبه وشفاها للتقدم إلى محروس شهاره لموجبات أعظم وأعمها معاهدة تلك المعاهدة المحروسة والمحال المأنوسة [٤] .

قيام الدولة القاسمية :

بعد قتل السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م على يد السلطان سليم الأول العثماني ، أصبح الأخير وريث ممتلكات دوله المماليك الجراكسة ، ولذلك فقد اتجهت أنظاره نحو اليمن لأن القوات الجركسية تحتله في ذلك الوقت منذ سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م في حملة قام بها حسين الكردي قائد الأسطول المملوكي ، وقد استطاع العثمانيون القضاء على بقية الجراكسة سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م حينما تمكن سليمان الخادم من قتل الناخوذة أحمد آخر حاكم

(٣) المحبي ، محمد أمين خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٤٠٦

(٤) الجرموزي ، المطهر بن محمد . سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل ص ٢٦٣

جركسي أثناء حفل أقيم للأخير في مدينة المخا [٥] .

وبعد القضاء على الجراكسة في اليمن دخل العثمانيون في حرب شديدة مع الامام شرف الدين ثم مع ابنه المظهر إلى أن تمكن العثمانيون من القضاء على حكم الأئمة الزيدية سنة ٩٩٤ هـ / ١٥٨٥ م حينما استطاعوا القبض على خلفاء الامام المطهر — وهم أولاده — وارسالهم إلى القسطنطينية ليوضعوا تحت مراقبة سلاطين آل عثمان [٦] .

وقد ظن الأتراك العثمانيون أن هذا القبض على زعماء الزيدية في اليمن قد أنهى المشكلة ، وأن احتلالهم لهذا القطر العربي سيدوم طويلا ، غير انه لم يدر بخلدهم أنه سيظهر أئمة آخرون على مسرح المقاومة فكان أولهم الامام المنصور القاسم بن محمد بن علي سنة ٩٦٧ هـ/١٠٢٩ هـ الذي اقترنت باسمه الدوله القاسمية منذ قيامها سنه ١٠٠٦ هـ وذلك حينما قام بثورته ضد الأتراك العثمانيين في ذلك التاريخ واستمرت إلى سنة ١٠٢٨ هـ بعدها عقد معهم هدنة .

واستمرت هذه الهدنة لمدة سنة فقط في حياته توفي بعدها في سنة ١٠٢٩ هـ فتولى ابنه الامام المؤيد محمد بن القاسم ٩٩٠ هـ — ١٠٥٤ الامامة ، فاحترم تلك المعاهدة ، إلا انها انتقضت في سنة ١٠٣٦ هـ حينما قتل الأتراك في صنعاء أحد قضاته ظناً منهم انه كان يقوم بدعاية الامامة في هذه المدينة والواقعة تحت سيطرتهم فقام الامام بثورة عارمة ضدهم ، فكان معتمداً على مساعدة أخوانه والقبائل الزيدية الشديدة البأس ، فتمكن من طردهم سنة ١٠٤٥ هـ .

أما الامام الثالث في الدولة القاسمية والذي سنتعرض له هنا ، فهو المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم « سنة ١٠٥٤ — ١٠٨٧ هـ » وهو أحد عظمائها ، كان عالماً بأصول مذهب الزيدية وفروعه ولم تقف علومه عند مذهب الزيدية وانما

(٥) النهروالي ، قطب الدين ، البرق اليماني في الفتح العثماني ص ٨٤ ، الرياض سنة ٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

(٦) يحيى بن الحسين بن القاسم غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ص٧٦٤ القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

تمداه فأخذ يقرأ كتب الحديث التي رويت عن أهل السنه ، وله عدة مؤلفات توجد في مكتبة الحكومة الألمانية في برلين ومكتبة الامبروزيانا في ميلان في ايطاليا ، وقد اقترن اسمه بتوسعاته في اليمن الجنوبي كما سنبين ذلك فيما يأتي .

المطهر الجرموزي يؤلف ثلاث سير لحياة الثلاثة الأئمة ومحتوياتها :

تعرض كثير من المؤرخين اليمنيين لتاريخ الدولة القاسمية وأخبارها وما وقع فيها من الأحداث ، وخاصة في فترة حكم هؤلاء الأئمة الثلاثة العظماء السالفي الذكر ومن بين هؤلاء المؤرخين السيد المطهر بن محمد الجرموزي الذي أفرد لكل واحد منهم مؤلفاً خاصاً دون فيه أخبار الامام المترجم له ، وما حدث في اليمن في عصره .

وأول هذه المؤلفات هو « النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة في أخبار .. المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد بن علي » هذه النسخة توجد في مكتبة المتحف البريطاني رقم ٥٤٠٣٣٢٨ ، وكان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب كما ذكر الجرموزي أنه قد سمع الكثير من أخبار هذا الامام إلا أن النسيان قد أخذ على كثير منها، ولذلك أخذ يدون ما وصل اليه من معلومات ثم وضعها في هذا الكتاب .

بدأ المؤلف بمقدمة للمواضيع التي سيكتب عنها، ثم تطرق إلى نسب الامام إلى أن أوصله إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونشأته وخصائصه وصفاته الأخرى كالشجاعه والعلم والورع والصبر .

كما تضمن هذا المؤلف العديد من الرسائل التي أرسلها الامام إلى الأفراد والمجموعات أو الاجابة عليه، وكذلك العهود وهي عبارة عن تعيينات لأشخاص مهمتهم تولي الحكم في بعض الأقاليم من قبل الامام . ومن قراءة الرسائل والعهود نجد آراء الامام القاسم السياسية في أن أمور الحكم لا تكون إلا في أهل البيت ، وهذه النظرية هي احدى معتقدات الزيدية اذ انه من الواجب

أن يكون الامام المتولي للسلطة منحدراً من أولاد الحسن أو الحسين أبناء علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في أي مكان وأي زمان إذا شهر سيفه مثل الامام زيد بن علي في ثورته ضد هشام ابن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ ، وأن يكون فقيهاً لأن زيد بن علي كان فقيهاً .

وبما أن للشعر أهمية كبرى في ذلك الوقت فقد دون الجرموزي الكثير من القصائد للامام نفسه ومن أخصها القصيدة ضد التصوف والصوفية وهي بعنوان « الكامل المتدارك لبيان مذهب المتصوف الهالك » وقد رد عليها السيد محمد بن عبد الله بن الامام شرف الدين بأمر سنان باشا ، كما يوجد الكثير من قصائد المدح وخاصة بعد الانتصارات أو قصائد الرثاء بعد الهزائم أو موت أحد المقربين من الامام كأبنه علي وعمه عامر بن علي الذين قتلهم الأتراك ، وقد سلخوا جلد عامر وحشوه تبناً ليتألم الامام القاسم نفسياً من هذا العمل ومن ثم تصبح هزيمته عسكرياً سهلة ، ويوجد أيضاً كثير من قصائد الرثاء في الامام القاسم الذي مات سنة ١٠٢٩ هـ .

وقد ترجم الجرموزي في هذا المؤلف لأربع طبقات من الرجال : هم علماء عصر الامام من أهل البيت وهم طبقتان: الأولى الذين أيدوه ومن هو في عصره ، والطبقة الثانية منهم الذين تفقهوا في أيام خلافته ولحقوا بالطبقة الأولى في اتباع طريقته . وأما الطبقتان الأخريان فهم أكابر شيعة الامام : الأولى الذين أيدوه في عصره والثانية الذين تفقهوا في خلافته ثم تداركوا الطبقة الأولى واتبعوهم في تأييد الامام .

وأخذت أخبار ثورة الامام القاسم الجزء الأكبر من هذا المؤلف حيث يوجد تفصيل شامل لمقدمات الثورة ، وفي أثنائها إلى عقد الهدنة سنة ١٠٢٨ هـ ، وكانت هذه الثورة على أربع فترات: الأولى من بدء دعوة الامام إلى خروجه من شهاره إلى برط والثانية من خروجه من برط إلى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا ، والثالثة من خروجه علي جعفر باشا بعد موت ابراهيم باشا ، والرابعة خروجه على محمد باشا ثم الهدنة سنة ١٠٢٨ هـ .

ولم يغفل الجرموزي عن ذكر اصلاحات الامام القاسم مـن بناء المدارس والمساجد أو اصلاح الوديان وشق القنوات لتجري فيـــها المياه المستخرجة من الينابيـع .

اعتمد الجرموزي في مؤلفه هذا على كتابات من سبقه من المؤلفين عن الامام القاسم كالسيد أحمد بن محمد الشرفي الجزء الثالث من كتابه اللآلىء المضيئة في أخبار رائحة الزيدية (٧) ، وقد كان الشرفي أحد حكام الأقاليم في اليمن من قبل الامام . كما اشترك معه في الثورة ضد الأتراك، وكذلك اعتمد الجرموزي أيضاً على ما كتبه السيد عيسى بن لطف الله وأظنه في كتابه روح الروح فـيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (٨) فنجده كثيراً مـا يقول وذكر السيد العلامة أحمد بن محمد الشرفي أو قال السيد عيسى بن لطف الله ولتجميع المعلومات لهذا الكتاب اتصل أيضاً بالكثير من الرجال الذين كانوا يشاهدون الوقائع كوالده والامام المؤيد محمد بن القاسم وغيرهم من القادة العسكريين أو الذين عاشوا مع الامام فهو مثلا يقول : « وأخبرني والدي » أو « لنرجع إلى رواية الشيخ ناصر بن عبد الملك »، وهو قد يذكر للرواية عدة أشخاص أو يقول: ونقلت من رسائل الامام القاسم التي جمعها ابنه الامام المؤيد محمد ، وقال في موضع آخر : وأما دعوته وحروبه وطـرف من سيرته فمما أخبرني الثقة من جماعة من أصحابه أو وسمعت من القاضي العلامة شمس الدين أحمد بن سعد الدين في مجلس القراءة في الحضرة الشريفة الامامية حضرة الامام المؤيد بالله أنه بعد دخوله حدود المصيمات ...

وقد ألف الجرموزي كتابه هذا بعد وفاة الامام بفترة طويلة اذ ان عمره

---

(٧) توجد نسخة من الجزء الثالث من اللآلىء المضيئة للشرفي في مكتبة بروزيانا في ميلان رقم C 101 ARABO

(٨) توجد نسخة من روح الروح لعيسى بن لطف الله في مكتبة المتحف البريطاني رقـم OL ٤٥٨٣٠

في سنة الوفاة في ١٠٢٩ سبع وعشرون سنة ، وفي آخر الكتاب دلالة على أن الفراغ من تأليفه كان سنة ١٠٦٤ هـ .

أما المؤلف الثاني للمطهر الجرموزي فهو « الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية » هذه النسخة في مكتبة الحكومة الألمانية في برلين، ضمن مجموعة جلازر رقم ١٤٧ ، ويبدو واضحاً أنها مسودة المؤرخ نفسه لأنه يوجد فيها تقطع في ترتيب المعلومات ، واختلاف في الخطوط فلم تكن على نسق واحد .

تولى الامام المؤيد محمد بن القاسم الامامة بعد وفاة أبيه سنة ١٠٢٩ هـ وأجمع العلماء من السادة والشيعة على مبايعته كما ذكر ذلك الجرموزي الذي كان حاضراً احتفالات تولى الحكم ، وقد عقب على ذلك بقوله : « ولقد رأيت في تلك الأيام عجباً » .

وقد تطرق الجرموزي إلى صفات الامام المتعددة كالكرم، والرفق بالناس، والبعد عن قرناء السوء منذ صغره ، وشجاعته . وروعه وكرم أخلاقه، وصبره ومروءته ، ثم انتقل إلى وصف حياته العلمية كطالب ومدرس في حياة والده وأثناء امامته وأخيراً كمؤلف .

ويضم هذا المؤلف بين دفتيه كثيراً من القصائد التي قيلت في مختلف المناسبات من مدح الامام أو مدح الأبطال الذين انتصروا على أعداء الامام كالأتراك أو الخارجين عليه من غيرهم أو في رثاء أحد من البارزين من أقاربه وغيرهم .

وقد أخذت ثورة الامام المؤيد ضد الأتراك الجزء الأكبر من هذا المؤلف والتي استمرت من سنة ١٠٣٦ هـ إلى طردهم على يديه سنة ١٠٤٥ هـ .وقد أعان الامام في حروبه هذه اخوته الحسن والحسين وأحمد واسماعيل تعضدهم القبائل الزيدية ، كما انه حوى الكثير من ثورات المغامرين في اليمن وعلى رأسها تلك الثورتين اللتين قام بهما أحمد بن الحسن بن القاسم والملقب في حضرموت بسيل الليل ، ثم بالامام المهدي أخيراً من سنة ١٠٨٧ إلى سنة ١٠٩٢ هـ وكان الأخير ابن شقيق الامام وقد غاضب عمه لعدم اعطائه مناطق نفوذ والده الحسن المتوفي

سنة ١٠٤٨ هـ ، كما أن الجرموزي تطرق في هذا المؤلف أيضاً للصراع الذي دار ، بين الامام المتوكل على الله اسماعيل وأخيه أحمد على تولي الامامة في اليمن بعد موت أخيهم الامام المؤيد محمد سنة ١٠٥٤ هـ .

وقد تخلل الكتاب الكثير من رسائل الامام وعهوده المرسلة إلى الأشخاص والجماعات في اليمن وخارجه والتي ضمنها نصائحه وآراءه في سياسة الحكم .

وقد ترجم الجرموزي في مؤلفه هذا لست طبقات من الرجال وهم طبقتان من علماء أهل البيت فالأولى التي عاصرت والده ثم عاصرت الامام المؤيد نفسه ، والطبقة الثانية الذين تفقهوا في زمانه ثم والوه ، ثم طبقتان أخريان وهم الشيعة وتنطبق أوصافهم على ما في الطبقتين الأولى . أما الطبقة الخامسة والتي ترجم لها الجرموزي فهم علماء الشافعية من القائلين بامامة المؤيد محمد وأخيراً ترجم للطبقة السادسة وهم الأمراء الذين تولوا الحكم في المناطق المختلفة في اليمن أو الذين اشتركوا في للقتال ضد الأتراك أو ضد الخارجين على سلطة الامام من المغامرين اليمنيين ، ثم ختم هذا الكتاب بذكر أولاد وبنات الامام المؤيد بن القاسم .

ويوجد الجزء الثاني من هذا المؤلف في مكتبة الامبروزيانا في ميلان رقم A ١١٥ A ٧٣٠٥ Arabo بعنوان « الجزء الثاني من سيرة مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله ابن المنصور بالله » وقد ظهر هذا الجزء أكثر وضوحاً وترتيباً من الجوهرة المضيئة ، غير أن المؤلف حذف منه طبقات الرجال الست الذين عاصروا الامام المؤيد والذين ذكرهم في الجوهرة المضيئة .

جمع المطهر الجرموزي مؤلفه هذا من ملاحظاته الشخصية فهو كان أحد مستشاري الامام ومعاونيه ، والمتتبع للحوادث في هذا المؤلف يرى ذلك فهو في موضع مثلاً يقول : « وفي هذا العام في شهر القعدة أمرني وغيري ممن وجهه — كما بلغني — بالبقاء وان كمل العمل حتى يأتي رأيه الكريم » كما ان المؤلف كان حاكماً في اقليم عتمة ، فهو على اتصال بالامام أو برجال القصر ، فنراه يقول : « وأخبرني ان الامام أخبره ، وأخبرني أصحابه الذين معه »

وأخبرني مولانا الحسن ، وكان الأخير شقيق الامام والقائد العام لجيشه أثناء الثورة ضد الأتراك .

أما المؤلف الثالث الذي كتبه المطهر الجرموزي فظهر تحت عنوان « سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بن المنصور » وهذه النسخة توجد في مكتبة الفاتكان رقم ٩٧١ وهي التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه ، غير انه لم يظهر هذا العنوان على الكتاب ، ولربما أن الأستاذ . Della Vida . G . L قد وضع هذا العنوان عندما أسند اليه تأليف فهرست المخطوطات الاسلامية والموجودة في مكتبة الفاتكان في روما [٩] . وقد ظهر عنوان آخر لنفس الكتاب وهو « نزهة الاسماع والابصار بما في السيرة المتوكلية من الأخبار » وهذه النسخة موجودة في مكتبة الشعب في المكلا في حضرموت [١٠] .

ويبدو أن نسخة الفاتكان هي مسودة المؤلف غير انه لا توجد ثغرات كثيرة ، كما أن الخط واضح ومتناسق ، ولم تظهر هنا حياة الامام الأولى ولا فترة شبابه ، ولا الكيفية التي وصل بها إلى الحكم ، ولربما أن المؤلف اكتفى بما دونه عنه في مؤلفه الجوهرة المضيئة حينما تطرق إلى الصراع على الامامة بينه وبين أخيه أحمد بن القاسم .

بدأ المؤلف سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم سنة ١٠٥٤ هـ إلى ١٠٨٧ هـ بتوسعات الأخير في الحدود الشرقية لليمن (اليمن الجنوبي حالياً) فقوى من قبضته على لحج وعدن سنة ١٠٥٥ هـ ، وكان الأمير عبد القادر حاكم أبين قد استولى على المنطقتين بعد طرده للاتراك باسم الامـــام المؤيد محمد بن

---

(9) Della Vida , G . L . , Elenco Die Manoscritti Arabi Islamici Della Biblioteca Vaticana , Rome , 1935 .

(١٠) الحبشي ، عبد الاله محمد ، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت ، المحافظة الخامسة ، عدن ، ١٩٧٥ .

القاسم سنة ١٠٣٦ هـ، وبقيت سيطرة الأخير اسميه إلى أن انتزعها الامام المتوكل على الله اسماعيل في التاريخ السابق من الأمير حسين ابن عبد القادر، ولم يقف الامام عند هذا الحد وانما انتزع منه مقاطعة أبين فأصبح الأمير طريداً، شريداً بدون مأوى .

وبعد هذا الاستيلاء أخذ الامـــام ومستشاروه في اليمن يراقبون الفرصة المواتية لاحتلال بقية أجزاء اليمن الجنوبي، وقد حانت تلك الفرصة سنة ١٠٦٥ هـ عندما تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن بن القاسم (سيل الليل) من هزيمة أحـــزاب اليمن الجنوبي في نجد السلف بقيادة حسين الرصاص، ونتيجة لهذه الهزيمة فقد خضع أقليم يافع، وأرض الرصاص، وأرض الفضلي والواحدة للامام، وما ان أتت سنة ١٠٧٠ هـ حتى تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن أيضاً من احتلال حضرموت، ثم في سنة ١٠٧٧ هـ خضع اقليم ظفار لحكم الامام في اليمن بعد أن تمكنت قواته من طرد حاكمه الكثيري .

وتطرق الجرموزي لكل من الثورات التي قامت ضد الامام المتوكل على الله من أهالي اليمن الجنوبي بعد احتـــلال الجيش اليمني لمناطقهم، وللثورات المحلية في اليمن، والتي قام بها ضد الامام بعض المغامرين، ومن بينهم من كان يرسل للامام الرسائل العلمية منتقداً سياسته في الحكم وقد دونها الجرموزي في مؤلفه هذا .

ويعتبر هذا المؤلف سجلاً حافلاً لأعمال الامام الاصلاحية أو تحركاته داخل اليمن، كما ضم الكثير من رسائله . وعهوده التي أرسلها إلى كثير من الأفراد، والحكام داخل وخارج اليمن ومن بينها يوجد عهد طريف ثبت فيه الامام حكم آخر سلاطين الهند المسلمين، ويدعى محمد اوزيك. كما دونت كثير من القصائد التي قيلت في مدح الامام أو في بعض المناسبات .

وتعرض الجرموزي لذكر بعض الرحالة أو العلماء الذين وفدوا على الامام في اليمن، ومن بينهم من زار الهند وأندونيسيا والقسطنطينية، وقد دون

من أحدهم نظام التعليم في الدولة العثمانية ، كما دون أيضاً الرحلة التي قام بها القاضي الحسن بن أحمد الحيمي من المخا إلى جوندار عاصمة الملك فاسلداس ملك الحبشة سنة ١٠٥٦ هـ الذي ظن الامام انه سيعتنق الاسلام فأرسل له الحيمي يتلمس ذلك . ولكن تبين أخيراً انه يريد أن يقيم علاقات تجارية مع اليمن وخاصة بعد ان قطع صلته بأوربا بعد طرد المسيحيين الكاثوليك من الحبشة .

كما دون الجرموزي إرتفاع الأسعار أو ظهور بعض الآفات فهو يذكر أن ريحاً شديدة هبت على ذمار سنة ١٠٥٦ هـ وتساقطت النجوم سنة ١٠٦٠ هـ ، كما ظهرت الجرذان بكثرة في أماكن متعددة سنة ١٠٦٨ هـ مما تسبب عنه أكل المحاصيل الزراعية ، ونزول صاعقة على شهاره سنة ١٠٦٩ هـ وظهور الجراد سنة ١٠٧٠ هـ .

اعتمد الجرموزي في تأليف هذا الكتاب على مشاهداته الخاصة أو من اتصالاته بالامام كحاكم لاقليم عتمه أو برجال القصر أو بالقادة العسكريين الذين كانوا يرسلون تقاريرهم أولاً بأول عن نتائج المعارك أو باتصاله شخصياً بالذين شهدوا الحوادث فهو يقول مثلاً : من ذلك ما أخبرني به القاضي العلامة وشمس الدين وخلف السلف الراشدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال أطال الله بقاه « وكان أحد قضاة الامم المتصلين به على الدوام فهو يعرف الشيء الكثير مما يدور داخل الدولة . وقال في موضع آخر : قال القاضي شمس الاسلام أحمد بن صالح بن أبي الرجال أيده الله فيما كتبه إلى أنه حصل مع الامام السرور وظهور النعمة ..... بوصول مولانا الصفي « (أي أحمد بن الحسن) ، إلا انه قد اعتمد أيضاً في تدوين بعض المعلومات على عامة الناس فاستحق أن يطلق عليه المثل القائل « حاطب ليل » فهو مثلاً يذكر أن الامام المؤيد محمد بن القاسم [11] سنة ١٠٤٠ هـ أو سنة ١٠٤١ هـ قد أرسل البهال الأسرى إلى سلطان حضرموت ،

---

(١١) الجرموزي، المطهر بن محمد، سيرة المؤيد محمد بن القاسم جـ ٢ ص ٣٢ أ ،ص٣٢ ب، سيرة المتوكل على الله اسماعيل ص ٢١ أ ـ ص ٢١ ب.

وقد وصف الجرموزي هذا الرسول بأنه من حذاق العوام ، فدون عنه كلاماً سخيفاً عن العلامة السيد الحسين بن أبي بكر بن سالم عميد أسرة آل أبي بكر بن سالم في مدينة عينات – عندما زاره في منزله في التاريخ السالف الذكر ، وقد تولى هذا العميد خطة مقاومة توسعات الزيدية في اليمن الجنوبي مما حدى بالمطهر الجرموزي في أن يركز هجومه عليه في مؤلفاته .

وإذا القينا نظرة على مؤلفات المطهر الجرموزي نجد أن التعصب للأئمة الزيدية وأتباعهم واضح كل الوضوح وقد علل ذلك قائلا : « والله ولي العفو عن المقصرين في حقوق الأئمة الهادين ، نسأله القيام بحقه (أي الامام الذي يكتب عنه) حقوقهم (أي الأئمة الآخرون) . وعلل أيضاً قائلا : « فالعقيدة ، صحيحة والحمد لله والمحبة للحق وأهله صريحه » ويعني هنا بأهل الحق هم الأئمة وأتباعهم من الزيدية .

ونتيجة لهذا التعصب الأعمى فانه أخذ بكيل اللعن والشتم لمن قام ضد الامام من غير الزيدية ، فهو قد حمل على الأتراك حمله شعواء فلم تكن هناك مثلبة إلا وذكرها ، وكلما ذكر قائداً منهم قال لعنة الله ان كان حياً ، ولا رحمه الله ان كان قد مات ، كما تهجم على السلطان عامر بن عبد الطاهري آخر سلاطين الدولة الطاهرية بقوله « الناصبي لعنه الله » وكان هذا السلطان قد توسع في اليمن على حساب الأئمة مما حدى بالمطهر الجرموزي في أن يلعنه حتى ولو كان تحت الثرى .

ولنر الآن ما ذكره النهروالي في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني ص ٣٠ عن هذا السلطان مردداً ما رثى به علامة اليمن ومسندها ومحدثها الشيخ وجه الدين عبد الرحمن الربيع السلطان عامر بعد قتله على يد المماليك الجراكسة ليكون القاريء لمؤلفات المطهر الجرموزي على حذر مما يدونه فيها .

قال الربيع شعراً

اخلاي ضاع الدين بعد عامر	وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمن فقد أخيه بعد صلاحه	من الامن والسلوان في غاية اليأس

وله فيه أيضاً :

تحطم من ركن الصلاح مشيده وقوض من بنيانه كل عامر
فما صلاح فيه بعد صلاحه ولا عامر والله بعد عامر

وقد عقب النهروالي قائلا : وفيه مرات كثيرة ، واستمر يرثي بعد تطاول زمان وفاته أيضاً ، بحيث انني سمعت بعد سنة أربعين وتسعمائة (أي بعد أكثر من مرور عشرين عاماً على وفاته) وأهل اليمن ينعونه بمراثي جعلوا لها طرائق يغنون بها .

دور اليمنيين في التاريخ الإسلامي القديم

دكتور هاشم جيت

عدن

ان دراسة الحضارة اليمنية القديمة على أهميتها لا تعارض البتة دراسة دور اليمن في نطاق التاريخ الاسلامي العام ذلك أن الحضارات القديمة عادة ميتة بينما واصل اليمنيون حياتهم إلى اليوم في ركب العروبة والحضارة الاسلامية ثم إن الحضارة اليمنية فيما قبل الاسلام لا تتجاوز حد الحضارات المحلية التي توالت وتعاقبت على الشرق الأوسط في حين برز الاسلام إلى الحياة التاريخية كوثبة عظيمة ذات مطامح عالمية . لذا فإن المساهمة الفعالة للعنصر اليمني في مغامرة الفتوحات ومغامرة خلق حضارة جديدة وثقافة حية من جبال البيرني إلى السند إلى آسيا الوسطى تعد على ما نرى أكبر عملية قام بها نبوغ هذا الشعب في تاريخه. ولعمري لقد كانت هذه المشاركة هامة محضرة بناءة بأتم معنى هذه الكلمات وفي ميادين عدة .

١ — الفتوحات : كثيراً ما نظر في الماضي إلى الفتوحات نظرة تقليدية مشربة من الشعور الديني . الفتوحات هي عملية تعمير وهجرة بالنسبة للعنصر العربي أكثر منها دعوه تبشيرية ووقعت هذه العملية بعد تقويض الامبراطورية الفارسية وتوهين الامبراطورية الرومانية فبسط لواء الحكم العربي على أغلبية بقاع العالم القديم .

وكان للعنصر اليمني الذي هو جزء لا يتجزأ من العنصر العربي دوراً حاسماً في هذه الفتوح التي رسمت إلى اليوم معالم البلاد الاسلامية قاطبة . هذا بالرغم من أن الدولة الحاكمة المدنية كانت شمالية وبالرغم من أن الدفعة أتت من مكة

والمدينة وقعت هذه المشاركة النشطة في عملية فتح العراق وفارس حيث اننا نجد من بين المتطوعين في الجيش العربي قبل القادسية عدداً لا يستهان به من اليمنيين بل كانوا في الأول هم الأغلبية استنفر عمر من العرب قبيلة بجيلة وعلى رأسها جرير بن عبد الله الحميري وهو الذي قام بالعمليات العسكرية الاستطلاعية قبيل القادسيه وفي خصوص التجمع الضخم بالقادسية الذي كان اللقاء الحاسم يروي لنا الطبري أن أول من لبي دعوة سعد بن أبي وقاص (٤٠٠٠ رجل) منهم ثلاث آلاف من اليمن .

– ٧٠٠ من السراة من الأزد .

– ٢٣٠٠ من مذحج من بني منية (أو زبيد) وعلى رأسهم عمرو بن معد يكرب وكذلك من جعفي والصداء وجزء ومسلية والنخع ثم ردفت روادف أخرى إبان المعركة أو بعيدها من همدان – ومراد – ويسمي هؤلاء السابقون في الجهاد مع أخوانهم من تميم وأسد وربيعة – .

أهل القوادس :

ورسمهم عمر في شرف العطاء وشاركوا فيما بعد في فتح جلولاء والمداين واجلاء الحكم الفارسي تماماً في العراق .

الاستقرار في الأمصار :

تم أتت فترة الاستقرار في الأمصار العسكرية التي صارت للعرب دار هجرة ووطناً جديداً . وتكونت الأمصار الواحد تلو الآخر . الكوفة أولا في العراق وتليها البصرة فالفسطاط بمصر فالقيروان بالمغرب فكأن جزيرة العرب قذفت بأبنائها في أرجاء العالم فاستوطنوا وبقوا على شخصيتهم وطبعوا بالطابع العربي إلى اليوم كل ما نسميه الآن بالبلاد العربية فهؤلاء العرب الذين خرجوا من حجازهم ويمنهم ونجدهم وتهامتهم تدين لهم اليوم بهويتنا العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي ولهم تدين الحضارة العالمية بخطى حاسمة في جميع

الميادين قامت على انقاضها أقسام وافرة من العالم المعاصر . وهنا نرجـــع إلى اليمنيين لنرى قوة مشاركتهم في هذه المغامرة ومدى تأثيرهم على كل هـذا (الميكانسم) هم استقروا بأغلبيتهم الساحقة في الكوفة ثم بدرجة ثانية بمصر والمغرب والأندلس .

الكوفة :

لا يخفى عليكم دور الكوفة في القرن الأول ذلك القرن الذي وضع لمدة (١٣) قرن التراكيب الاساسية للحضارة العربية الاسلامية . نرى من خـلال قراءة مدققة للمراجع .. ان القبائل اليمنية الأصلية من أمثال همدان ومذحج وحمير وحضرموت استوطنت بأغلبيتها الساحقة بالكوفة ولم تتفرع ولم تتشعب في في الأمصار كغيرها من القبائل .

وكان الاستيطان بالكوفة الأولى أي إلى زمن زياد (٥٠ من الهجرة) على النمط القبلي والعشائري فكان نصيب همدان في الشمال بينما كان نصيب مذحج بالجنوب مثلاً في حين أن التنظيم الاداري العسكري الذي قسم المقاتلة إلى سبعة أسباع ويبرز أهمية العنصر اليمني في بين هذه الأسباع نجد مـــن النواة اليمنية القديمة : — مذحج وحمير وهمدان في سبع كامل ومن الأطراف اليمنية أي الذين لفوا لف اليمن بجيله وخثعم وكنده والأزد . ووقعت في زمن زياد أي زمن استقرت فيه الأمصار وتركز الحكم عملية تبسيط في هذه النظم فقسمت الكوفة إلى أربعة أقسام .

١ — أهل المدينة

٢ — مذحج وأسد

٣ — كنده وربيعة

٤ — تميم وهمدان

فجذبت القبائل الكبرى العشائر الصغرى وتقول لنا المراجع مثلاً « دخلت

حمير في همدان وحضرموت في كندة والأشعرون في مذحج الخ الخ ›.. أي انه وقع اندماج لكنه اندماج اداري لم يؤثر على الهوية الأدبية .

أما من الوجه العددي فيمكن لنا أن نحصي عدد المقاتلة بالكوفة إلى ستين ألف وعدد عيالهم ثمانين ألف أي حوالي مئة وأربعين ألف ساكن يوازي عدد اليمنيين منهم الثلث وبداخل الجبهة اليمنية نفسها يتضح ان الأغلبية متركبة من قبيلتين : همدان ومذحج أي أن اليمنيين ليسوا الأغلبية في الكوفة ولكنهم لعبوا دوراً أساسياً لسببين اثنين :

أولاً : تجمعهم في نقطة واحدة بالعراق هي الكوفة خـــلافاً لتميم وقيس وربيعة .

ثانياً: نزوحهم نزوحاً يكاد يكون مطلقاً بقبائلهم كاملة غير مقطعة وغير منقطعة وغير مفتوحة وأهم دليل على ذلك ما تصفه لنا المراجع حول أشكال استقرار اليمنيين ونوعية توزيعهم في مصرهم الجـــديد وهي تقسيم بين النواة اليمنية أي القدامى المتحضرين سابقاً . أو أهل القرى والمدن بالرغم من انحطاط اليمن قبيل الاسلام وبين يمنيي الأطراف المتيمنين الجـدد من أمثال بجيلة والأزد ونلغي في تحليلنا طبعاً كل من ادعى اليمنية من قاطني الشام « قطاعه ومن لف لفـها من كلب » وشكا همك ..

ماذا نرى في الخريطة القبليه أيام الدولة الأموية في الكوفة ؟ نلاحظ الدور الرئيسي عند همدان ببطونها العديدة (شور – شبام) .

الغبائسيون – ناعط القائـــديون الشبيع أرحب مرهبة وديعة بنو اليام الشاكريون كل هذه بطون كانت لها خططها في شمال الجامع وكذا مساجدها ومقابرها « مثل جبانة الشبيع الـــتي قامت فيها ثورة المختار » وأيضاً رجالتها الذين هم رجـــالات الكوفة فشبام هي عشيرة مجالدين سعيد المحدث والشبيع ينتسب اليها السيد همدان سعيد بن قيس والوديعي هي عشيرة مسروق بن الأجدع التابعي المحدث وشاكر هـو بطن ابن الكامل صاحب المختارين بن أبي عبيد الثقفي كل هذا التحليل يعطي لنا نظرة خاطفة على الطابع الذي طبع بـــه

اليمنيون حياة الكوفة الدينية والاجتماعية والسياسية كذلك فيما يخص مذحج إلا أن مذحج اقل معرفة من همدان في يمنيتها وهي كهمزة الوصل بين قيم حضارة المدن والقرى وقيم البدويين بين قيم قلب الجزيرة وشمالها . وكلنا يعلم أن عمرو بن معدي كرب سيد زبيد أبان الاسلام كان الفارس الشاعر القائد الأوحد والنموذج المثالي للقيم البدوية العربية وهو صاحب قصائد تعد من أقدم القصائد وكذا الا قوه الشاعر وعبد يغوث بن حلائه وقد كان من أصحاب الأيام ومن مبدعين في الفخر لكن مذحج يمنية في الجملة وتمثلها في الكوفة المشائر التالية « جلد مراد سعد العسيرة عنس وخصوصاً النخع وهي كذلك وضعت طابعها على توبوغرافية المدينة وسير حياتها » . قلنا ان النواة اليمنية الأصلية بالكوفة قامت على هاتين القبليتين لكن لا بد من التذكير بأن العناصر القدامى الآخرين اندمجوا ادارياً وفي سكنهم مذحج وكندة التي قد تعد قبيلة هاشمية فالحميريون صار عدادهم في همدان إذ كانوا قلة فكان دورهم قد وهن من قبل الاسلام تبعاً لرئاستهم نفسها وكان اليمن في صدر الاسلام يمن جديد نوعاً ما أعني بهذا همدان إلا ان كانت قد شاركت حمير في سيادتها القديمة وبالتبعية لها ولكن انقلب الوضع ، لكن الحميريين الاقحاح موجودون على كل حال (آل ذي حدان - آل ذي رضوان - آل ذي لعوه - آل ذي مران) . والحق أن همدان نفسها تنقسم فيما قبل الاسلام إلى قسمين قسم متحضر بمعنى المستوطن المجرب للحياة القارة (كناعط) وقسم كان يعيش عيشاً بدوياً ونصف ضامن (كغدريام وشاكر وارحب) والمشكلة الهامة هنا أن نتعرف على مدى تأثير العناصر المتحضرة في همدان وحمير في تخطيط الكوفة وتدريب الشعب العربي عامة على الحياة المدنية الجديدة خارج الجزيرة - هذه مشكلة عظيمة لأن الكوفة كانت نموذج بغداد ولأنها كانت طوال حياتها مدينة عربيه بحتة لم تكد تتأثر بالحضارات العراقية والفارسية القديمة . وما نقوله في همدان يمكن تكراره بخصوص مذحج ومن اندمج فيها من الأشعرين رهط أبي موسى الاشعري - وما قلناه في خصوص تأثير الحضارة اليمنية يمكن الاقرار به عند تحليلنا لدور بلحارث أبناء نجران منهم قد صالحو محمداً على نصرانيتهم والقليل منهم على يهوديتهم ثم أجلاهم عمر عن الجزيره فاستوطنوا بالشام وأكثرهم بالكوفة حيث كانت لهم محلة تسمى

بالنجرانية . وكانـوا أربعين ألف برأسهم العاقب والاسقف ولعلهم لعبوا في حياة الكوفة دوراً اقتصادياً هاماً جداً لتعاطيهم عمليات الصيرفة والقراض بل يذهب المستشرق (ماسينيون) إلى أنهم هم الذين خلقوا الاداة البنكية المالية التي ستنبثق في القرن الثاني للهجرة على شكل رأسمالية ضخمة تلك الرأسمالية التي كونت أدواتها من أمثال الحوا والصفتاحة والصك وما يشبه ذلك مما أخذه الايطاليون في القرن الثاني عشر للميلاد ثم تطور ونتجت عنه تقنية الرأسمالية الحديثة هكذا يظهر التسلسل الخفي للتاريخ .

ولن أطيل عليكم الكلام فاذكر باسباب استقرار ودور القبائـــل اليمنية الهامشية كنده وبجيله والازد على ان كنده اندمج فيها أهل حضرموت وعلى أن الشعور الجماعي ينسبهم اطلاقاً وبدون تمييز إلى اليمن . فروايات البلاذري حول أحوال كندة . انما يرويها عن مشائخ اليمن على حد قوله . ودور كندة هام في حياة الكوفة السياسية والدينية أيام الأمويين فمنهم ظهر حجر بن عدى أول ثائر شيعي ومنهم الاشعث وكذا القاضي شريح كما أن الازد برز منهم عبد الرحمن بن مخنف القائد والمؤرخ المرجع مرجعنا حقاً في كل ما يخص القرن الاول أبو مخنف لوط بن يحيى وفيما بعد أول فيلسوف العربي الكندي ، لن أطيل عليكم القول في كل هذا لان الكلام فيه يحتاج إلى ساعات وساعات لكن علينا أن نوصل هـذا الدور الخطير لليمن بالكوفة فنقول على وجه وضع مشاكل كل امام العلم التاريخي .

١ ـ هم قاموا بدور عظيم في الفتوحات

٢ ـ هم دربوا الشعب العربي على التساكن وعلى الحياة المدنية على نسبة كبيرة .

٣ ـ عدم مشاركتهم في الحكم القائم دفعهم دفعاً نحو التشيع سواء في الفترة الاموية (حركة حجر بن عدى - ثورة المختار قامت أساساً على همدان) أو في الفترة العباسية حيث انقلبت الشيعة من حزب سياسي إلى طائـــفة دينية سياسية فملة دينية بحتة بستيولوجيتها الخاصة . وزمان نضجت الفكرة الشيعية أي في القرن الثالث كان الهمدانيون هم القائمين بالدعـوة . ومركزهم لم يكن سوى قذف لروح الكوفة وحماسها المتألم .

٤ ـ لا بد من رفع التباس حول صراع عدنان اليمن في آخر القرن الاول

وحتى في خلاله وبعده . فهذا الصراع لم يشارك فيه اليمنيون الاصليون بل هو تطاحن بين عناصر دعيه من قضاعة وكلب داخل الحكم القائم وعناصر من قيس مضني داخل الحكم القائم أيضاً فلم يكن الانتساب إلى اليمن سوى شعار يغطي مصالح وكذلك اختيارات سياسية جوهرية بين نظرية اتساعية ترى دوام جبهة الفتوح واستغلال الشعوب المغلوبة ونظرية ترى عكس ذلك (وهو الحزب اليمني) لكن التفاف العدد العظيم والقبائل حول النسبة اليمنية وأو على خطأ يظهر بأجلى مظهر ما كان في هذه الكلمة من الجاذبية والشعور النضاح بأن اليمن هو القطب الآخر للعروبة في أعمق جذورها القادر وحده على معاكسة قدسية العروبة المضرية .

وإذا رجعنا إلى اليمنيين الأصليين لاحظنا تغيبهم عن هذه الصراعات ، وبقدر ما ضجت الكوفة بالدعوة لآل محمد وما يواكبها من شعور بالعدالة وغضب للحق بقدر ما ابتعدت عن تطاحنات الفئات الحاكمة . ولعل هذا التباعد المتكبر عن غوغائية الوقت الذي كان سمة همدان ومذحج هو الذي قربهم من تشيع كان حقاً احتجاجاً مستديماً ولعله هو الذي طبع الكوفة بطابعها الأصيل وبطرافة صارت مع الزمن انكماشاً من سيرها من ثورة سياسية إلى ثورة سياسية وأدى بها إلى الخراب والموت مع بقاء ذكرها وتراثها من علم وأدب وشعر وتصوف ملتصقاً إلى الأبد بالعنصر اليمني الذي كان خميرتها وقلبها النابض .

تكلمت عن الكوفة باسهاب ولكن اسهام اليمن كان أيضاً فعالا بمصر وكذا بالمغرب وبالأندلس ففي المغرب هاجر اليمنيون مع موجة الفتوحات زرافات وكان العنصر الفعال في اقامة لواء العروبة بالقيروان. ولو تصفحنا كتب الطبقات ككتاب أبي العرب والخشني ورياض النفوس للمالكي ومعالم الايمان لابن ناجي لرأينا من حمير (وبالخصوص من رعين) ومن تجيب ومن مذحج ومن المعافر ولعل العشائر اليمنية القديمة اصطفت لنفسها افريقية كوطن ومهاجر لبعدها عن مركز الحكم. ولذا تذكر لنا المراجع وجود اليمنيين بأغلب جهات الأندلس فالأشعريون استوطنوا برياً وعنس بقلعة يحصب وخولان بقرطبة وحضرموت

ومن سلالتهم آل خلدون باشبيلية .

ولا سبيل إلى الاطالة في صيغ اثرائهم للثقافة المغربية فلغتنا الدارجـة فى مدن تونس متأتية منهم والموسيقى الكلاسكية الاندلسية ثم المغربية هم أربابها وفخر تونس والمغرب قاطبة عبد الرحمن ولي الدين ابن خلدون عريق في اليمنية وهو وليد تونس وخريج جامع الزيتونة .

فبأجدادكم الذين هم أجدادنا تلقنا العربية ودخلـنا في العروبة والحضارة الاسلامية وبهم طبع المغرب بطابع حضاري أصيل . فماضينا وماضيكم واحـد لكن علينا جميعاً ان نبني المستقبل على أسس مجددة وأن نتخذ المسافة اللازمة أمام الماضي كي يكون الماضي ماضي الحاضر لا حضوراً للماضي وتبجحاً عقيماً.

تخطيط المدن القديمة في وادي الرافدين

الدكتور خالص الاشعب
صنعاء

بادي ذي بدء لا بد من الاشارة إلا أن هنـــاك الكثير من المدن وفي اصقاع متباينة من العالم القديم مما لم يكشف عنها إلا جزئياً . وان مـا نملك من اثار منقبة في مـــدن مثـل أور وأشور وبابـــل وهيراكوبوليس ومنف وطيبة ... الخ . لايتعدى اليسير مما يجب أن نحصل عليه من معلومات حـول تخطيط المدن آنذاك . كما وان المتواجد من مصادر حول هذا الأمر هو الآخر يسير سواء كان ذلك في الدراسات القديمة والـتي لم تشر تفصيلاً إلى تخطيط المدن ، أو في الدراسات الحديثة .

إن هذه الحقيقة لا بـد وأن تدفعنا إلى التصميم على اعادة تقييم ما نملك من مواقع أثرية حضرية أو استيطانية بصورة عامـــة وذلك عن طريق الدراسة العلمية ذات المحتوى التطبيقي والتي لا بد من جعل المسوحات الميدانيـــة محوراً لها .

ان هذا أيضاً وبزخم موجـات التحضر المعاصرة التي يمر بها وطننا العربي ليدفعنا لأن نخطط لسياسة المحافظة على موروثاتنا Conser Nation رفـــق أسلوب يتصف بالعملية الأولوية الشمولية ، وإمكانية التحقيق .

يرجع علم تخطيط المدن Town Planning إلى فترات قديمة جـــداً حيث يمكن القول بأن هذا الحقل قد جذب اليـــه اختصاصات متباينة هندسية ، معمارية ، جغرافية ، اجتماعية ، واقتصادية .

يصح هـــذا على الفترة الأولى التي ظهرت بها أنواع الاستيطان الحضري في العالم وهي المرحلة الـتي تجمع فيها السكان ولأول مرة يمارسوا حياة اجتماعية منظمة في مستوطنات مختلفة .

لقــد لعبت الوظائف المتباينة العسكرية ، الدينيــة ، التجارية ، الادارية (السياسية) والعلميــة دوراً أساسياً في ظهور أول أنواع المراكز الاستيطانية المدنية . ان ممارسة هذه الوظائف مجتمعة أو منفردة بحد ذاتها تدعو إلى خلق مجتمعات بشرية فرضت بدورها انماطـاً معينة من التخطيط الحضري وبالتـالي نماذج مورفولوجية متباينة تفسر تفاعل عوامل معينة تتمثل بالوظيفة أو الوظائف المقدمة ، التركيب الاجتماعي – الاقتصادي للمجتمع وقتئذ والمرحلة الحضارية التي يجتازها وبالتالي خلق الظاهرة المكانية المميزة التي هي المدنية وبغض النظر عن مرتبتها .

إذن لقــد فرضت الوظائف على الناس أن يتجمعوا وبمساكن تتمايش سوية على وحدة المساحة تدور رحى حياتهم اليومية حول بعض المنشاءات العامة التي قد أوجدت في مراكز هذه التجمعات من المصادر المتوفرة (تنقيحات وأدبيات) يمكن الاستنتاج بأن المقياس الانساني Human Seale قد أخذ بنظر الاعتبار بتحجيم مدن الرافدين الأولى سواء من ناحية الامتداد الأفقي حيث تتراوح المساحة السطحية لتلك المدن بين ٣و٠ – ٢و٣ ميل ٢ أم من ناحية السكان اللذين لم يزيدوا عن ٣٠ ألف نسمة . وان ذلك يعـني ان مدننا الأولى كانت بسعة يمكن للانسان أن يتحرك فيها ويمارس تفاصيل حياته اليومية وبدون الارهاق الجسمي Within Walking Distance مما يتفق بنفس الوقت ومستوى هاتيك المجتمعات التكنولوجية .

لقد لعب عامل تزايد السكان من ناحية وتنوع حاجـات الانسان نتيجـة لتطوره من ناحية أخرى دوراً أساسياً في عملية التوسع Sprawl الذي اتصفت به تلك المراكز الأولى ومما خلق نماذج لأول أنواع المدن المعروفة في العالم .

إن هذا التجمع البشري ومتطلبات الحياة اليومية ومنها الخدمات بأنواعها

قد ساعدت على زيادة تشابك المصالح مما دفع إلى إيجاد أول أنواع القوانين التي حاولت تنظيم حياة تلك المراكز الاستيطانية الحضرية .

من ذلك يمكن أن نستنتج بأن المدينة والحياة الاجتماعية بمفهومها العصري إنما ظهرا بآن واحد وكتوأمين لا انفصام بينهما .

لقد عاصرت المدينة إذن تطور الانسان الذي ترجم حاجته وممارسة وظائفه إلى وحدات مورفولوجية معينة تواجدت في مدينته مما حول المدينة نفسها إلى أوضح وأصدق أنواع مصادر التاريخ حيث تمثل المدن هنا في الواقع مصنماً للتاريخ نفسه ولكنه تاريخ من نوع خاص تاريخ مركزي للحياة الحضرية وتاريخ عام أسهم في وضع الاطار التاريخي العام للأمة التي يتواجد فيها . فمن المدن كانت السياسات التخطيطية سواء لها أم لغيرها من أجزاء الاقطار التي توجد فيها .

إن التاريخ (الزمن) يعيش في وحدات المدن التخطيطية ، إنه يعيش في أنماط الشوارع وطرز العمارة وبشكل لا يقبل الجدال . لذلك فأصبح بالامكان أن تعتبر المدن ، القديمة منها والحديثة ، مسرحاً يمكن أن نمسح فيه مظاهر التطور أفقياً على وحدة المساحة وراسياً في أعماق الزمن وذلك بما يتواجد من أنماط الأبنية وتفاصيل خطة المدينة . ان فهم هذا المنطق Concept يمكننا أن ننطق مدننا التاريخية مورفولوجياً Morphological phaces وإلى مراحل كل منها تحكي قصة الانسان الذي تعايش فيها ، تمثل طموحاته وأسلوب حياته والاطار المكاني لتحركاته سواء من أجل العمل أو قضاء الوقت المريح ، وان كل مرحلة لتعكس قابليات الانسان ومستواه التكنولوجي الذي حدد إمكانية استثماره لموارد بيئته في البناء والاعمار .

وما دامت كل مدينة قد ظهرت ومرت تحت ظروف تختلف عن الأخرى لذلك فبات بالامكان معرفة هوية كل مدينة قديمة ، هل انها بدائية ، محصنة ، ملكية ، دكتاتورية الخ ...

يمثل ما تبقى من مدن في الواقع أحسن مصادر لتاريخ العمارة والتخطيط تحكي لنا قصة الأجيال وقابلياتهم .

لقد تحددت أنواع التخطيط الحضري الممارسة في العصور القديمة بعوامل معينة تتأثر بمفهومية مجتمع كل عصر لعنصر الجمال ، أنمـــاط حياتهم ، أنواع حاجاتهم ، وادراكهم لمعنى التخطيط . ان لمفهوم التخطيط القديم للمدن علاقة مع تطلعات أولئك السكان، لمستقبلهم وادراكهم لمعنى وحدتي الزمن والمكان.

لقد لعب عامل الدفاع وأهميته دوراً أساسياً في توقيع المدن في مناطق استراتيجية (مرتفعة أو جزرية وما شابه) وكذلك في تخطيطها العام حيث ابتدعت ظاهرة التسوير أو التحصين بالأسوار المرتفعة بدافع توفير أقصى حد من الحماية . ان ذلك قد حدد المعالم الرئيسية لأنماط الشوارع المتواجدة في تلك المدن وبالتالي تسلسل أهمية أجزاء المدينة المختلفة بقدر ما يتوفر من درجة أو سهولة الوصول Accessibility . وما دام الإنسان اجتماعي بالطبع لذلك فقد انعكست هذه الصفة على طبيعة علاقاته بأجزاء المستوطنة الحضرية التي عاش فيها بأن خلقت أبسط أنواع التنطيق Zoning حيث تواجدت أماكن السكن ومناطق التسلية والعبادة والصناعة والتجارة إلى غير ذلك مما كان ضرورياً آنذاك وبدأت تظهر معالم التخصص الوظيفي لأجزاء المدينة . ان خطط المدن القديمة المتوفرة تعكس حقيقة هامـــة وهي أن قصور الملوك أو المسؤولين والمؤسسات ذات الصفة العامة كالمعابد أو القلاع إنما تحتل مواقع مركزية مميزة مما يكسب الأجزاء المتواجدة فيها من المدينة أهمية وظيفية حيث تتمحور جوانب معينة من حياة المدينة حولها. لذلك فتقع مثل هذه المنشآت على الشوارع الرئيسية وفي غالب الأحيان تتفرع الشوارع من أماكن تواجدها . ان أهم ما تتصف به المدينة هو الصفة الداينمية Dynamic . وذلك لأنها في الكثير من النواحي تشبه الكائن الحي Organ . إن ذلك ناتج عن سببين رئيسيين هما التفاعل الوظيفي وتطور التفاعل هذا وتدخل الانسان عن طريق التخطيط أو إعادة التخطيط ، وإن كان على أبسط صورة ، إذ تمثل المدن هنا مسرحاً لعمليات تخطيطية مستمرة ووفق ما يتطلبه كل جيل من مقومات تضمن نجاح حياته وتحقيق كفاية ذاتية .

لقد انعكست على خطة المدينة كذلك مهارات المعماريين والحرفيين بمـــا أسبغوه على الوحدات العمارية من معالم وأفانين تميز كل مرحلة من المراحل

المورفولوجية . وفي هذا المجال يجب علينا وعند أية دراسة لتتبع تطور تخطيط المدن ان لا نكون احاديي النظرة بل ان يجب أن نتصف بالشمولية التي تستوعب المدينة ككل . إذ يتجاوز المركز الاستيطاني المدني في واقعه مجرد ما قد بقي من آثار للقطاع العام أو للأثرياء والملوك . ان هذه هي جزء من كل ، وبقية الكل هو للناس وهم الغالبية العظمى من سكان المستوطنة ، لذلك فيجب أن نتابع أنماط حركاتهم الحياتية سواء في السكن أو العمل أو العبادة أو التجارة أو التسلية وحينذاك ستتولد لدينا المعايير الكاملة التي بموجبها يمكن أن نقيم حضارة المجتمع وفي كل مرحلة من مراحل تطوره . تنبع هذه النظرة من الايمان بأن قيمة أي انجاز عماري أو تخطيطي أو علمي إنما بقدر الانتفاع الذي ينتفع به أكبر قطاع من الناس ، لذلك فلفهم التخطيط للمدن القديمة يجب أن ندرس الوحدات التخطيطية والانجازات فيها لا بشكل مجرد ، وإنما بقدر تفاعلها مع بعضها ولخدمة الناس مقاسة بالكفاءة الوظيفية التي من أجل تقديمها قد أنشئت كل وحدة نتيجة التبدل المستمر في الوظائف والمثل او الأسس التي آمن بها المجتمع والتي قد توجهت إلى منشاءات معينة . فإن المؤسسات أو المنشاءات نفسها ستتعرض إما إلى التبدل والتحرير بدرجاته المختلفة أو إلى الزوال لاقامة غيرها وربما يتناسب والوظائف أو المثل والأسس الجديدة التي يؤمن بها المجتمع نفسه (المتطور) أو المجتمع الجديد .

إن من الأسباب الرئيسية لظهور الحضارة في وادي الرافدين إلى جانب غيره من الأقاليم كوادي النيل ووادي السند والكنج ، هو توفر الامكانيات لخلق فائض في الانتاج الزراعي مما يمكن إعالة مجاميع بشرية تمارس أعمالاً لا تتعلق في الأرض وتتجمع لتمارس حياة الحضر في أقدم أنواع المدن . إلى جانب ذلك فقد تكونت دول أو ممالك قوية تحاربت مع بعضها وورثت الواحدة منها الأخرى مما ساعد على اثراء الحضارة وتطورها بفعل الاحتكاك الحضاري .

لقد لعب المسؤولون دوراً أساسياً في إنشاء المدن أيضاً ، حيث أصدروا الأوامر من أجل ذلك . لقد استعمل الطوب المحروق واللبن لبناء مدن وادي الرافدين الأولى . وكانت تبنى بيوت هذه المدن عموماً حول فناء الدار (الحوش) الذي أصبح ميزة تخطيطية توارثتها المدن اللاحقة . وكان ارتفاع

الأبنية يتحدد أو يتناسب مع سعة الشوارع التي تقع عليها وتكنولوجية البناء السائدة .

لقد كانت البيوت عموماً متكونة من طابق أو طابقين وكانت تراعى الظروف الصحية ولوحظت أحياناً حتى صفات المجاري بالنسبة للساكن • لقد تأثرت مدن العصور الوسطى في أنماط التخطيط المتبع في هذه المرحلة كما ويمكن القول بتشابه بيوت عامة الناس مقارنة مع بيوت المتنفذين أو رجال السلطة رغم امكانية وجود بعض التباين الجزئي في وحدات البناء السكنية للعامة . من المميزات السكنية الأخرى لمدن وادي الرافدين القديمة هي تواجد دور الطبقة العالية (المتنفذة سلطوياً واقتصادياً) على الشوارع الرئيسة بينما تنتشر دور الطبقة العامة على شوارع وأزقة أقل أهمية وفي مناطق أكثر هامشية . يمكن القول بأن غالبية البيوت لا تتعدى في مساحتها وكمعدل ٧٠ م٢ .

لقد كان للاحداث التاريخية السلبية (حروب) والعوامل الطبيعية مثل تكرر حالة الفيضان أثر كبير في اندثار العديد من هذه المدن وأول ما أصاب الاندثار هو مساكن الناس الاعتياديين .

لقد وافق ظهور تلك المدن أن تكونت العديد من القرى على امتداد دجلة والفرات وتحول عدد من هذه القرى إلى مدن أثرية لبعض الملوك فيما بعد . لقد كان سكان هذه المراكز من عامة الناس يؤمنون بالمعتقدات والأساطير كما كانوا في وضع اقتصادي ضعيف حيث كان العامل مثلاً يدفع الكثير من أجل توفير مسكن له ، إلا انه قد جرت بعض المحاولات لتنظيم تطوير المدن وضمان العدالة لأبنائها ، فمثلاً شرع حمورابي قوانين قبل ٣٧٦٨ سنة تنظم المباني ومن جملة نصوصها أن يعاقب المعمار الذي لا يقدر مسئوليته ففي حالة سقوط حائط يؤدي إلى قتل ابن ساكن الدار فالعقاب هو قتل ابن البناء على قاعدة العين في العين . لقد مر ذكر الشوارع التي نالت اعتناء السلطات في بابل وغيرها مما يدل على أن التخطيط آنذاك قد تعدى الوحدات السكنية لمن على رأس السلطة . لقد أكد التخطيط آنذاك على الأسوار والتفنن في البوابات كما قد تمت انجازات رائعة بالنسبة للمراحل الزمنية التي ظهرت فيها مثل الجنائن المعلقة أو الزقورات . وهنا لا بد من التنبيه إلا انه بالرغم من المنجزات العمرانية والتخطيطية الضخمة

فقد كان هناك تفاوتاً هائلاً بين حالة الرعية والسلطات مما يدفعنا إلى الايمان بوجود نوع من نظام العبودية والسخرة التي كان يعاني منها سواد الناس . ان ذلك يفسر عزلة قصور الملوك أو مركزيتها في مدن وادي الرافدين مقارنة مع ما كان ظاهراً في مدن جزر بحر إيجه .

ان ازدهار الحياة المدنية في وادي الرافدين ، كما أشرنا قبل قليل ، إنما هو لسبق بتواجد الرافدين اللذان يتكرر فيضانها سنوياً . ان ذلك قد دفع إلى تطور فنون وهندسة الري أيضاً والتي أسهمت في إيجاد فائض من الانتاج الغذائي .

تشير الرسوم الأشورية المنقوشة على الأحجار بأن المدينة الأشورية محصنة عادة بسور محاط هو الآخر بمجرى مائي قد يكون نهراً لزيادة الحماية . يغلب الشكل الرباعي وخاصة المستطيل منه على هذه المدن المسورة التي تحيط بأنواع مختلفة من المساكن . كذلك فتشير هذه النقوش إلى وجود بعض المباني وبعضها عام خارج السور أي في المساحة بين السور والمجرى المائي .

كذلك فبالامكان استنتاج معالم تخطيطية أخرى للمدينة في وادي الرافدين، من ملاحظة مخطط مدينة نيبور حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد التي تدل أيضاً على تواجد الأسوار وبعض المعابد. إلى جانب ذلك تظهر بعض الخنادق والقنوات. أما إذا انتقلنا إلى مدينة بابل فبالرغم من عدم توفر الكفاية من الأدلة بواسطة التنقيبات الجارية فبالامكان اعتماد المصادر المكتوبة كوسيلة لاستكمال الصورة عن هذه المدينة .

لقد ذكر هيرودوتس بأنه عاش في فترة بدأت فيه تجتذب مراكز القوى من مدن وادي الرافدين . أما مدينة بابل وكما ذكر هيرودتس فقد كانت إحدى المدن العظمي الباقية ومن جملة أوصافه لخطتها هي أنها مربعة الشكل تماماً ، وبخمسة عشر ميلاً للضلع ، أي بمحيط طوله ٦٠ ميلاً . لقد ذكر بأن المدينة مسورة ولزيادة التحصين فقد كانت أسوارها (مثل المدن الأشورية) أيضاً محاطة بخندق مليء بالماء .

لقد استعمل الطابوق المصنوع من الطين النهري . لقد كان يحرق الطابوق هذا قبل استعماله بالبناء كما قد استعملوا مادة القار كملاط مماسك بين الطابوق حالاً محل السمنت في الوقت الحاضر . لقد كانت المدينة مشطورة إلى جانبين بواسطة نهر الفرات . لقد ذكر ان غالب المساكن متكونة من ثلاثة أو أربع طوابق لقد كانت أنظمة الشوارع مستقيمة سواء بالعرض أو الطول . إلى جانب السور الخارجي فلقد كان هناك سوراً داخلياً أقل سمكاً من الأول . كما كان يوجد حصن وسط كل جانب من جوانب المدينة وفي داخل أحد الحصنين تقع قصور الملوك .

لقد استعمل النحاس لصنع أغلب الأبواب كما قد أشير إلى وجود البرج وبثمانية طوابق ويتم الصعود اليه من الخارج بممر يدور حول كل الأبراج كذلك فقد أشير إلى تواجد معبد فوق أعلى الأبراج . ان هذه الاشارات إنما جاءت لمدينة كانت تتعاطى سكرات الموت إلا انه مع ذلك فبالامكان الوصول إلى مزيد من الاستنتاج مما خلفته الآثار نفسها عن المستوى التكنولوجي الذي كان سائداً آنذاك وكذلك عن مواد البناء واستعمال القار كمادة للتماسك والخطة العامة للمدينة .

توفر مدينة أور إحدى المعالم التي قد تزيد معلوماتنا عن تخطيط مدن وادي الرافدين الأولى . تعتبر هذه المدينة الكلدانية من أقدم المدن التي مورس فيها التخطيط بشكل متطور لقد وصفت بأنها واسعة وغنية بمبانيها وترعها ومعابدها . كذلك فقد وردت اشارات إلى وجود شارع السوق . لقد كانت هذه المدينة مسورة هي الأخرى . كذلك فقد توفرت انجازات عمارية رائعة متمثلة بالزقورات ، غالباً ما توقع الأسواق (الوظيفة التجارية) قرب أبواب الأسوار أو على الجبهات المائية حيث تسهل عمليات النقل والتبادل . من كل ما سبق يبدو أن للوظائف وقتئذ الأثر الكبير في الاطار العام لخطط تلك المدن . إن من أهم هـذه الوظائف هي الوظيفة الادارية ، السكنية ، وتقديم بعض الخدمات وان الوحدات التخطيطية المبينة فيما يتواجد من مخططات أوأدبيات ونتف الآثار المنقبة لمصدر تأكيد على ذلك . وبتخطيط تلك المدن فيبدو انه

قد لوحظت راحـة الانسان حيث ان غالب تلك المدن إنما كانت ضمن الحدود التي يستطيع الإنسان أن يتحرك فيهـا وبدون ارهاق جسدي وهو ما يدعى بالتخطيط الحديث (Human in Scale) .

لقد كان المعيار الانساني Human Scale مهما جـدا في طبيعة التوزيع الوظيفي والتخصص السكاني لوحدات تلك المـدن إلا أنـه لا يمكننـا الجزم بتفاصيل ذلك نظراً للصعوبات التي ذكرناها في بداية البحث .

المصادر :

1 — Henry Churchil, The City is the People, 1945

2 — A. Kovn, History Builds the Town, 1953

3 — Lewis Mumford, The city in History, 1956

4 — Lewis Mumford, The Culture of cities, 1938

5 — Dr. M. Hammad, Town Planuing and its History, 1965

6 — A. E. Smailes, The Geography of Towns, 1968

7 — R. J. Solomon, Procedures in Townscape Analysis, Annals of the Association of American Geographers, 56 (1966) .

8 — Robert M. Adams, The Origin of Cities. Scientific American, Sept, 1960

9 — Lewis Mumford, The Natural History of Urbanization, in William L. Thomas (ed). Mans Role in Changing the Face of the Earth, Chicago. the University of Chicago Press, 1958.

10 — Dorthy Mackay, Ancient Cities of Iraq, 1926

11 — طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، القسم الأول ، بغداد ، ١٩٥٥

معركة حارم

"التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين زنكي"

"١١٦٤م - ٥٥٩هـ"

دكتور مهدي سعيد عمران
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

يمثل القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري حلقة تعتبر من أخطر حلقات الصراع بين الشرق الاسلامي والغرب الأوربي ، فقد ألقى الغرب بكل ثقله في المنطقه وتمكن من إقامة الإمارات الصليبية في الشام وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى الاسلامية تستجمع قواها لضرب هذه العناصر الدخيلة وطردها من أراضيها تبرز الإمبراطورية البيزنطية بمحاولة السيطرة على الشرق الإسلامي وبسط نفوذها على المنطقة . وهكذا بات يتصارع على منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ثلاث قوى ، أولها ، القوى الإسلامية باعتبارها صاحبة البلاد الأصلية ، وثانيها ، القوى الصليبية الدخيلة التي تمكنت من فرض نفوذها على المنطقة ، وثالثها الامبراطورية البيزنطية .

وتشعبت المشاكل الشرقية إزاء القوى المتعددة في المنطقة من مسلمين وصليبيين وبيزنطيين وأرمن ، ويزيد من تعقيد هذه المشاكل أن المسلمين لم يكونوا تحت قيادة موحدة ، فكثيراً ما نجد الصراع بين سلاجقة الروم وآل دانشمند وحكام الشام المسلمين حيناً والتقارب الظاهري بين هذه الأطراف حيناً آخر ، وما نجده أيضاً من خلافات بين الحكام الصليبيين في وقت ما ، ثم إتفاقهم في وقت آخر ، يضاف إلى ذلك ما دار من صراع بين الحكام الأرمن أنفسهم ، وأخيراً صراع هذه القوى مع بعضها حيناً وتحالفها حيناً آخر .

والبحث الذي بين أيدينا صورة من هـذا الصراع يتمثل في تحالف الامبراطورية البيزنطية مع الصليبيين والأرمن بغرض القضاء على القوة الاسلامية الناهضة المتمثلة في نور الدين زنكي .

وحول التحالف الذي نحن بصدده فقد كان يحكم الامبراطورية البيزنطية الامبراطور مانويل الأول Maneul I (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٧ - ٥٧٦ هـ) كما كان يتولى إمارة أرمينية الصغرى الأمير ثوروس الثاني Thores II (١١٤٤ - ١١٦٧ م / ٥٣٩ - ٥٦٣ هـ) . أما الامارات الصليبية فكان على رأسها عموري الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٣ - ١١٧٣م / ٥٥٧ - ٥٦٩ هـ) وبوهمند الثاني Behemond II أمير أنطاكية (١١٦٣ - ١٢٠١ م / ٥٥٨ - ٥٩٧ هـ) وريموند الثالث Raymond III أمير طرابلس (١١٥٢ - ١١٨٧ م / ٥٤٦ - ٥٨٣ هـ) .

وترجع أسباب هذا التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين زنكي إلى عام (٥٥٨ هـ / ١١٦٣ - ١١٦٤ م) ، عندما قام نور الدين بالتوجه على رأس قواته إلى حصن الأكراد[1] بغرض منازلة مدينة طرابلس[2] ، تمشياً مع سياسة الجهاد التي وضعها والده عماد الدين ضد الصليبيين . ولعل ما شجع نور الدين على مهاجمة طرابلس في ذلك الوقت هو إحساسه بالنفور القائم بين ريموند الثالث أمير طرابلس والإمبراطور مانويل بعدما قام ريموند بمهاجمة الأملاك البيزنطية لرفض مانويل الزواج من أخته ميلسند Melisend . وعلى أية حال فقد فوجىء نور الدين وهو في طريقه إلى حصن الأكراد بالقوات الصليبية على مقربة منه ، وتضيف بعض المصادر العربية أن قنسطنطين كولمان Constantine Colman حاكم قيليقية البيزنطية إنضم إلى الصليبيين في هـذه

---

(١) حصن الأكراد : حصن منيع على جبـل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب . ياقوت الحموي - معجم البلدان ، جـ ٢ ص ٢٧٦ . وكانت قلعة هذا الحصن تابعة للفرسان الاسبتارية وهي قلعة منيعة تحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحدقان بها وقـد استولى عليها الاسبتارية عام ١١١٠ م و ستعادها الظاهر بيبرس عام ١٢٧١ م راجع أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ .

المرحلة ، والواقع أن كولمان إنضم إلى القوات الصليبية في مرحلة لاحقـــة ، والمهم أن القوات الاسلامية هزمت في هذه المعركة وتمكن نور الدين من النجاة بأعجوبة [١] .

عاد نور الدين بعد هذه المعركة إلى حمص وأخذ يستعد لملاقاة الصليبيين ، وفي الوقت نفسه استعد الصليبيون أيضاً لمحاربة المسلمين وقصدوا مدينة حمص ، ولما علموا بوجود نور الدين بالمدينة خافوا واعتقدوا أن لديه من القوات مايكفي لهزيمتهم لذلك أرسلوا إلى نور الدين يسألونه الهدنة ولكنه لم يجبهم ، لذلك عادوا إلى بلادهم بعدما تركوا حامية عند حصن الاكراد [٢] .

وقد استعد نور الدين بكل قواتـه لمحاربة الصليبيين كما أرسل في طلب النجدة من أخيـه قطب الدين في الموصل وقرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف الإسلامية يدعوهم إلى مساعدته على الجهاد ضد الصليبيين [٣] ، وكانت وجهة القوات الإسلامية في هذه المرة حارم التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية من الجهة الشرقية [٤] ، وكان السبب في قيام نور الدين بالهجوم على الصليبيين هذه المرة هو أن عموري ملك مملكة بيت المقدس قاد جيشه للهجوم على مصر للمرة الثانية [٥] ، فأراد نور الدين مهاجمة أملاك الصليبيين ليخفف الضغط على مصر ويضطر الصليبيون للعودة إلى بلادهم وإنقاذها من الهجمات الاسلامية [٦] .

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ١٦ لوحة ٣٥٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٦ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٨ .

(٣) إبن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٨ .

(٤) Vitry, History of Jerusalem, p. 94

(٥) Schlumberger, G. Campagnes de Roi Amaury I, pp. 36-48

(٦) ابن واصل : المصـــدر السابق جـ ١ ص ١٤٣ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٨ .

ومما يجدر الاشارة اليه أنه في ذلك الوقت كان الصراع على أشده بين نور الدين والملك عموري على امتلاك مصر بعدما إزدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل ابن رزيك وإبنه وحلول شاور حاكم الصعيد في الوزارة وصراعه مع حاجبه ضرغام [١] .

قام نور الدين بمهاجمة حارم ، وفي الوقت الذي كان فيه رينو أف سانت فاليري Reynald of Saint Valery صاحب حارم يستبسل في الدفاع عنها انضم اليه بوهمند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس والأمير ثوروس الأرميني وقسطنطين كولمان حاكم قيليقية لمساندته ضد نور الدين[٢] ، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك نية سابقة لمهاجمة المسلمين قد أعدت من قبل وأن الملك عموري إشترك في إعداد هذه القوات قبل القيام بحملته على مصر بدليل ما نراه من إصحاب عموري لبعض القوات البيزنطية أثناء عودته من قيليقية بعد مساهمته في القضاء على الفتنة التي أعقبت مقتل ستيفن Stephen [٣] أو أن عموري أحضر هذه القوات للدفاع عن الإمارات الصليبية أثناء غيابه في مصر ، ومن الواضح أن كولمان لم يشترك في مساندة الصليبيين إلا بعد موافقة الامبراطور مانويل الذي أمده ببعض القوات البيزنطية [٤] .

وعند هذه النقطة نتوقف قليلاً للايضاح ان انضمام كولمان وثوروس إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود نفور بين الأرمن والبيزنطيين بسبب مقتل ستيفن ، يضاف إلى ذلك أن تقدم كولمان للدفاع عن حارم وهي من ممتلكات إمارة انطاكية ما يدل على اهتمام البيزنطيين بأمر انطاكية باعتبارها واقعة تحت السيادة البيزنطية ، كما أن وجود القوات البيزنطية في المعركة إلى جانب قوات إمارة طرابلس بقيادة ريموند الثالث ما يشير إلى أن حادثة مهاجمة ريموند

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٩٠ .

(٢) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, II, P. 307.

(٣) Gregoire la pretre, Chrenique, p. 199

(٤) Vitry, op. cit., p. 94

للأملاك البيزنطية بسبب رفض مانويل الزواج من مليسند أخت ريموند [١] ، لم تترك أي أثر في نفس الامبراطور مانويل [٢] ، وأن البيزنطيين والصليبيين والأرمن قد تركوا خلافاتهم جانباً للقضاء على نور الدين .

كان التقاء القوات الاسلامية بالقوات المتحالفة عند حارم في أوائل شهر أغسطس عام ١١٦٤ / أواسط شهر رمضان عام ٥٥٩هـ ، ولما وجد نور الدين ضخامة القوات المتحالفة التي قدرها ابن الجوزي بحوالي ثلاثين ألفاً [٣] ، وأنه يحارب أربعة أمراء في وقت واحد يقودون قوات صليبية وأرمنية وبيزنطية [٤] ، انسحب إلى قرية « عم » بالقرب من حارم وطمع في أن تتبعه القوات المتحالفة فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم ، ولكن القوات المتحالفة لم تتبعه وعادت إلى حارم فتبعهم نور الدين في عساكره لقتالهم [٥] . ويشير المؤرخ السرياني المجهول عند هذه المرحلة أن الأمير الأرميني ثوروس نصح الأمراء الآخرين بعدم القتال والانتظار حتى يعود الملك عموري من مصر ولكنهم لم يأخذوا بالنصيحة لذلك هرب ثوروس من المعركة [٦] . ولعل في نصيحة ثوروس هذه ما يشير إلى حسن إعداد نور الدين للمعركة القادمة ، أو أن القوات المتحالفة رغم كثرتها كانت تفتقر إلى حسن الاعداد والنظام ، كما أنها تشير بوضوح إلى انقسام القادة المتحالفين على أنفسهم .

وعلى أية حال فإنه عندما تقاربت القوات الاسلامية والقوات المتحالفة واصطفت للقتال حملت القوات المتحالفة على ميمنة القوات الإسلامية وكان

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 289

(٢) Richard, J., Le Comte de Tripoli, p. 30

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٤) Joseph ben Joshua, Chronicle, I, p. 153

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥ .

(٦) Anenymous Syriac Chronicle, The First and the Second Crusades, p: 304.

فيها عسكر حلب وعسكر حصن كيفا فانهزم المسلمون [١] ، وعلى ما يبدو أن القوة التي هاجمت الميمنة كانت بقيادة قنسطنطين كولمان وقد أشارت اليه المصادر الاسلامية باسم « الدوقس الرومي » وانه كان أشدهم على المسلمين [٢] . ولكن المعركة مالبثت أن تحولت لصالح المسلمين عندماقام الأمير زين الدين علي كوجك وعساكر الموصل بالانقضاض على القوات البيزنطية وأنزلت فيهم القتل والأسر، الأمر الذي دفع المؤرخ الصليبي جاك دي فتري Jacques de Vitry إلى إتهام القوات البيزنطية بالجبن ووصفها بأنها عناصر غير محاربة [٣] ، وقد ترتب على ذلك أن بقية العساكر الاسلامية قد تشجعت بهذا النصر وأحاطت بالقوات المتحالفة من كل جانب، واشتدت رحى الحرب حتى إنتهى الأمر بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة بعدما قتل منهم عدد كبير قدرته بعض المصادر العربية بعشرة آلاف فارس وراجل [٤] ، كما وقع في أسر المسلمين كل من بوهمند أمير انطاكية وريموند أمير طرابلس وجوسلين الثالث Joscelin III وهيو أف لوزجنان Hugh of Lusignan [٥] ، وحاكم قيليقية البيزنطي قنسطنطين كولمان[٦]، ولم ينج من الأسر من القادة المتحالفين سوى الامير الأرميني ثوروس الذي هرب من ساحة المعركة بعدما تبين له عدم جدوى مقاومة المسلمين [٧] ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٣ .

(٣) Vitry, op. cit., p. 94

(٤) ابن الجوزي : ملخص تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ٩٣ هـ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢٠ .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن واصل: المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥، أبو شامـــة : الروضتين جـ ١ ص ١٣٣ ، العيني : عقد الجمان (مخطوط) جـ ١٦ لوحة ٣٦٣ .

(٥) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ١٤٧ ،
William of Tyre, op. cit., p. 308

(٦) Cinnamus, J., Epitome Historiarum, p. 216. : Michel le Syrien La Chronique, p. 359

(٧) Anony mous Syriac Chronicle, op. cit., 304

وقد قيدوا هؤلاء القادة بالسلاسل إلى حلب مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم حوالي ستة آلاف [1] .

كانت الهزيمة التي حلت بالقوات المتحالفة هزيمة ساحقة واعتبرت من أعظم الكوارث التي حلت بالقيادة الصليبية الشمالية بوجه خاص [2] ، وترتب عليها نتائج متعددة منها ؛ أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر فتقدموا لمهاجمة حارم وتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد عدة أيام وسقطت في أيدي القوات الاسلامية في الحادي والعشرين من رمضان عام ٥٥٩ هـ / الثاني عشر من أغسطس عام ١١٦٤ م [3] ، كما شجع هذا النصر أيضاً القوات الاسلامية على محاصرة مدينة بانياس ، وكان هذا الحصار ضمن العوامل التي أرغمت القوات الصليبية التي كان يقودها عموري في مصر على الانسحاب والعودة إلى الشام لانقاذ بانياس ولكنها وصلت بعد سقوط المدينة في أيدي القوات الاسلامية [4] ، وهكذا نجح نور الدين في الاستيلاء على حارم وبانياس وساعد على انسحاب الصليبيين من مصر .

كما ترتب على هذه المعركة نتيجة أخرى توضح لنا موقف نور الدين من الامبراطور مانويل الذي كان يرى أن امارة انطاكية الصليبية جزءاً من أملاك الامبراطورية البيزنطية . فرغم الانتصارات التي أحرزها نور الدين على القوات المتحالفة مما جعل الطريق مفتوحاً إلى انطاكية خاصة بعد أسر أميرها بوهمند، إلا أن نور الدين لم يجازف بمهاجمة المدينة لا لعجزه عن الاستيلاء عليها وإنما يرجع ذلك إلى بُعد نظر نور الدين وحسن إدراكه للظروف المحيطة به ، وتفسير ذلك أن سياسة الامبراطور مانويل كانت ترمي إلى إيجاد نوع من توازن القوى بين القوات الاسلامية والقوات الصليبية في الشام ، لأنه بمساندة

---

(١) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٢) King, The Knights Hospitallers, p. 90

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧

William of Tyre, op cit., p. 308

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٠٤ .

الصليبيين يظهر للعالم الأوربي أنه بمثابة حامي الامارات الصليبية، وفي الوقت نفسه فإنه إذا ترك القوات الصليبية بمفردها فإنها ستلقى هزيمة تلو أخرى على يد القوات الاسلامية ، يضاف إلى ذلك أن حمايته للامارات الصليبية تساعده على التدخل في شؤنها وفرض نفوذه عليها،ومن ثم يستطيع أن يحركها لأغراضه وأطماعه، وأخيراً في محاولته فرض السيادة البيزنطية التامة على إمارة أنطاكية التي كان يعتبرها جزءاً من الأملاك البيزنطية . وأن في مهاجمة نور الدين لمدينة أنطاكية ذريعة قوية لتدخل الامبراطورية البيزنطية في الامارة والسيطرة عليها عسكريا لذلك كان نور الدين يرى عدم الاستيلاء على انطاكية وترك الأمور في هذه الامارة بالذات على حالها حتى لا تلقي الامبراطورية البيزنطية بثقلها العسكري في الامارة وبذلك يصبح عليه أن يواجه الامبراطورية البيزنطية والامارات الصليبية في وقت واحد. ومصداق ذلك أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بالسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها فلم يوافق وقال « أما المدينة فأمرها سهل ،وأما القلعة التي لها فهي منيعة ولا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بوهمند أحب إلي من جوار ملك الروم »[1] .

ولقد كان نور الدين في منتهى الحكمة عندما رفض مهاجمة انطاكية ،ذلك لأن البيزنطيين كانوا لا يرضون بأي تدخل في إمارة انطاكية حتى ولو جاء هذا التدخل من قبل الأمراء الصليبيين الآخرين ، ذلك أنه بعد عودة عموري من مصر إتجه إلى انطاكية لتدبير أمورها ولعـــله كان طامعاً فيها ووضعها تحت حكمه المباشر،ولكن البيزنطيين لم يرضوا عن تدخل عموري في شئون انطاكية وقدمت سفارة بيزنطية لتسأل عموري عن أسباب وجوده في المدينة ، ولكن عموري كان لبقاً وأشار أن ذلك بسبب إعداد سفارة لارسالها إلى القسطنطينية لرغبته في الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات [2] ، وهكذا حسم عموري الأمر ، كما يتضح من رد الملك الصليبي تودده للامبراطورية البيزنطية ، ولعل

---

(١) العيني : المصدر السابق جـ ١٦ لوحة ٣٦٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٥ .

(٢) Cinnamus, op. cit., pp. 237 - 8

ذلك ما دفع الملك عموري إلى الشكوى للملك لويس السادس Louis VII ملك فرنسا (١١٣٧ – ١١٨٠ م) من تدخل البيزنطيين في أنطاكية [١] .

وعن النتائج التي جاءت من قبل الأسرى فيمكن القول انه إذا كان بعد نظر نور الدين وحسن إدراكه للظروف المحيطة به جملته لا يوافق على مهاجمة أنطاكية فإن بعد نظره أيضاً دفعه إلى إطلاق سراح قنسطنطين كولمان مقابل مائة وخمسين ثوباً من الحرير [٢] . ولعل في ضآلة هذه الفدية التي قبلها نور الدين ما يشير إلى أن نور الدين لم يكن راغباً في الدخول في صراع مباشر مع الامبراطورية البيزنطية ويفتح على نفسه جبهة أخرى أقوى من الجبهة الصليبية فتتشتت جهوده بين القوتين . أما فيما يتعلق بالأسرى الأرمن فيروي المؤرخ ميخائيل السرياني أن الأمير ثوروس أرسل إلى نور الدين بعض الهدايا مقابل إطلاق سراح الأسرى الأرمن ، ولكن نور الدين رفض هذا العرض الأمر الذي دفع ثوروس إلى مهاجمة مدينة مرعش ونهبها وأسر العديد من المسلمين وعندذلك تحول نور الدين إلى المصالحة وتبودلت الأسرى [٣] . ولعل ما دفع نور الدين إلى هذا التحول أن نور الدين كان لا يرغب في أن يسير قواته إلى الشمال للقتال ضد أرمينية فتخلو الممتلكات الاسلامية من عساكرها وتصبح سهلة المنال للقوات البيزنطية والصليبية خاصة بعد عودة عموري والقوات الصليبية من مصر فاشلة، هذا الفشل الذي ربما يدفع عموري إلى القيام بعمل عسكري لتعويض فشله في مصر .

أما فيما يتعلق بفك أسر الأمير بوهمند صاحب أنطاكية فقد ذكر المؤرخ وليم الصوري أن الصليبيين عملوا على اطلاق سراح بوهمند بعد دفع الفدية وبعد مضي حوالي سنة من وقوعه في الأسر [٤] ، ويضيف ميخائيل السرياني أن بوهمند اتجه إلى القسطنطينية فور الحصول على حريته وما لبث أن عاد إلى انطاكية محملاً بالهدايا ومعه البطريق البيزنطي الارثوركس أثناسيوس Athanasius ليكون

(١) Analric I, Letter to Louis VII, p. 39
(٢) Cinnamus, op. cit., p. 216
(٣) Michel le Syrien op. cit., p. 359
(٤) William of Tyre, op. cit., 11 p. 311

بطريقاً على أنطاكيا [١] . ورغم ذلك فالباحث يرى أن الامبراطور مانويل كان له دور في إطلاق سراح بوهمند بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية في أنطاكية عقب أسر بوهمند واستفسار هذه السفارة عن سبب وجود عموري في أنطاكية . وبمعنى ذلك أن بقاء عموري في المدينة أمر غير مرغوب فيه من قبل الامبراطورية البيزنطية في الوقت الذي لا نجد فيه مثل هذه السفارة عقب أسر رينو أف شاتيون Reynold of Chatillon (أرناط) أمير انطاكية (١١٥٣ - ١١٦٠ م / ٥٤٨ - ٥٥٥ هـ) الذي كان لا يزال أسيراً حتى ذلك الوقت ولم يفرج عنه إلا في عام ١١٧٥ م / ٥٧٠ هـ [٢] ، كما ان استفسار السفارة البيزنطية عن أسباب وجود عموري في انطاكية يعني أمراً آخر وهو ان الامارة لا تتبع الملك عموري وليس له الحق في التدخل في شئون الامارة، ويكون ذلك إستناداً إلى أمرين أولهما، إما أن تضع الامبراطورية البيزنطية يدها على الامارة وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق هذا الغرض وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية وهو ما لم يحدث ، والأمر الثاني أن بوهمند عائد إلى الامارة عن قريب ولا داعي لوجود عموري ، وإذا كان ذلك ما يتعلق بموقف البيزنطيين والصليبيين من إطلاق سراح بوهمند فإنه استكمالاً لهذه القضية وتأكيداً لما يراه الباحث فالأمر يتطلب القاء الضوء على موقف نور الدين من فك أسر بوهمند . وقد صور لنا المؤرخ الصليبي وليم الصوري موقف نور الدين خير تصوير فروى أن نور الدين لم يتعود إطلاق سراح الزعماء الصليبيين بعد وقت قصير وأن اطلاق سراح بوهمند يرجع إلى بُعد نظر ورجاحة عقل نور الدين وأن ذلك يرجع إلى خوف نور الدين من تدخل القوات البيزنطية أو ان نور الدين رأى اعادة بوهمند ليحكم أنطاكية حتى لا يحل محله في الامارة أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء فيشكل خطورة على الممتلكات الاسلامية [٣] .

وبذلك بات من الواضح أن النفوذ البيزنطي كان له أثره الواضح على النتائج المترتبة على موقعة حارم ، فالنفوذ البيزنطي حال دون تقدم نور الدين لمهاجمة

---

(١) Michel le Syrien, op. cit., p. 359

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 248 - 414

(٣) William of Tyre, op cit., II, p. 311

أنطاكية وكان لهأثره الواضح في اطلاق سراح حاكم قليقية البيزنطي قسطنطين كولمان ، كما أن إطلاق سراح بوهمند يرجع في معظم جوانبه إلى الامبراطور البيزنطي مانويل .

تبقى من هذه القضية نتيجتان ، الأولى تتعلق بالناحية الاقتصادية وهي أن نور الدين أطلق سراح بعض الأسرى الصليبيين مقابل بعض الأسرى المسلمين[١]، أما البقية الباقية من الأسرى الصليبيين فقد بلغت حصيلة فديتهم ستمائة ألف دينار ، وقد استغلها نور الدين في بناء المدارس والربط والمستشفيات وما شابه ذلك[٢] . أما النتيجة الثانية فتتعلق بالنفوذ الديني البيزنطي في أنطاكية ذلك أن بوهمند عاد من القسطنطينية ومعه البطريق الأرثوذكي أثناسيوس الأمر الذي أغضب البطريق الصليبي الكاثوليكي ايمري Aimery الذي احتج على هذا الإجراء وانسحب إلى قلعة القصير[٣] وأغضب أيضاً بقية رجال الدين واحتجوا له لدى البابا اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١م) الذي أيدهم في موقفهم كما ساندتهم كذلك كافة القوى المسيحية في الغرب[٤]، وقد ظل اثناسيوس بطريقاً لانطاكية رغم كل هذه الاحتجاجات حتى عام ١١٧٠ م عندما لقي حتفه من أثر الزلزال الذي دمر جانباً من المدينة ولم يعين بطريقاً أرثوذكياً خلفاً له[٥]. وكلمة أخيرة نسجلها في ختام هذا البحث الخاص بالتحالف الصليبي البيزنطي الأرميني وهي أن هذه المعركة كانت آخر معركة على أرض الشام تشترك فيها القوات البيزنطية في عهد نور الدين ، ورغم النهاية الفاشلة التي منيت بها إلا أنها توضح لنا جانباً من أثر النفوذ البيزنطي على مجريات الأحداث في عهد نور الدين .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٥ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٨ .

(٣) Michel le Syrien, op. cit., p. 360

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٦ .

(٥) Michel le Syrien, op. cit., p. 371

حياة الملك الأشرف اسماعيل الغساني (١)
وجهوده الثقافية

دكتور شاكر محمود عبد المنعم
العراق

هو عماد الدين أبو العباس اسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الفتح بن هارون الغساني .

---

(١) وردت ترجمته في :

عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ٧ مجلدات ، دار الكتب اللبناني ، بيروت ١٩٥٧ ، مجلد ٥ ق ٥ ص ١٠٩٦ - ١٠٩٧ علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢) ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٧١ وما بعدها . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها . الكفاية والأعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ميكروفيلم المصورة عن نسخة الجامع الكبير بصنعاء ورقمه فيها (من الكتب المصادرة) ، الورقة : ١٩٨ وما بعدها . أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١) ، صبح الأعشى في كتابة الانشاء ١٤ جزء ، القاهرة (١٣٣١/١٩١٣ - ١٣٣٨/١٩١٩ ، ج ٥ ص ٣١ - ٣٢ . شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقريء (ت ٨٣٧) ، عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ١٤٢٧ ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ ، الورقة ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر المعروف بالديبع (ت ٩٤٤)، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١١ م تاريخ الورقة ١٣ - ١٤ . قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٤٤ الورقة : ١٠٤ أ - ١١٠ . وانظر أيضا نسخة مكتبة المتحف العراقي رقم (١٧٥٠) ، الورقة ٢٩٢ - ٣٠٩ . عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥١ ، ج ٧ ص ٢٦ . يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٥) ، انباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، الورقة ٩٤ - ٩٩ . كما وردت ترجمته في مصادر أخرى لا مجال لذكرها .

لم تر معلومات دقيقة عن حياة الأشرف قبل أن يصبح ملكا . وكانت بداية حكمه من يوم الجمعة (١) الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهو ابن ست عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما (٢) ، وهذه مدة صبا لا ينتظر منها أحداث حافلة ولا انجازات ناضجة في حياة الأفراد الاعتياديين . كما أن المؤرخين في الماضي ركزوا اهتمامهم في الأعم الأغلب ، في تدوين أخبار الملوك اعتباراً من بدء ولايتهم .

وأوضح ابن حجر (٣) ان الأشرف كان في ابتداء أمره طائشا ثم توقر وأقبل على العالم والعلماء وأحب جمع الكتب وكان يكرم الغرباء ويبالغ في الاحسان اليهم .

أعماله : ان أكثر ما يهمنا من حياة الملك الأشرف تعليمه وشيوخه والحياة الثقافية في عصره ، وما قام به من أعمال عمرانية تمت إلى الثقافة بصلة كبناء المدارس والمساجد،وحتى لا يجيء هذا البحث مبتوراً شعرنا بضرورة التحدث عن أعماله الأخرى باقتضاب .

في المجال الحربي لم تذكر المصادر حرباً ذات بال خاض غمارها الملك الأشرف . غير أن اليمن لم يكن موحداً في عصره بكامل أجزائه فكان قسم منه بيد الأئمة الزيديين الذين نشطوا منذ زمن الملك المظفر ثم تتابع نشاطهم في أيام

---

(١) انظر الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ . والتاريخ المذكور هو ذات التاريخ الذي توفي فيه والده الملك الأفضل . وقد وهم زامباور في اعتبار بداية ولاية الأشرف في رمضان سنة ٧٧٨ . انظر : معجم الأنساب ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ .

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ١ الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقد الجمان ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ واحال إلى ابن حجر والعيني . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ واحال إلى ابن حجر .

خلفائه من بعده ، فقاموا بعدة حركات الاستيلاء على مواضع نفوذ الرسوليين . ويلوح لنا من خلال البحث أن ما قاموا به من حركات في مدة حكم الأشرف كانت ضئيلة ومحدودة ، لم يجد صعوبة كبيرة في القضاء عليها . على أن نشاطهم ازداد في أواخر القرن الثامن الهجري وخصوصاً في جبال اليمن [1] .

وكان قسم آخر محدود من اليمن قد سيطر عليه المعازبة [2] وهؤلاء على ما يبدو لم يكونوا منظمين ، كما أن حركاتهم كانت محدودة فقضى عليها بسهولة .

وهناك نفر من المتمردين الذين يظهر تمردهم آنياً في اقطاعاتهم فيعلنون انفصالهم ، ثم لا تلبث اقطاعاتهم بالعودة إلى تبعيتها لملك اليمن [3] .

أما في مجال العمران والبناء . فانه بنى جامع الملاح [4] على باب زبيد القبلي سنة ٧٩٠ ، ورتب فيه اماماً ومؤذنيين وأربعة فراشين ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن وخطيباً ومدرساً على مذهب الامام الشافعي ومعيداً ومدرساً على مذهب الامام ابي حنيفة ومعيداً ومدرساً في الحديث ومقرئاً للقرآن في القراءات السبع ومدرساً في النحو والأدب ومدرساً في الفرائض والحساب ومع

---

(١) بازرير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٠٠

(٢) وكان موطنهم في أطراف وادي زبيد قريباً من القحمة ، وكانوا يغيرون على أنحاء اليمن فينهبون ويسلبون ، انظر حركاتهم في العقود اللؤلؤية ، ج ٢ على سبيل المثال : ص ٢٤١ ، ص ٢٥١ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ ، ص ٢٧٣ ، ص ٢٩٩ .

(٣) كما فعل ابن ميكائيل على سبيل المثال حينما استولى على حرض وسردد من مدن اليمن لكنه توفي في السنة الثانية من ولاية الملك الاشرف . انظر : ابن المقريء ، عنوان الشرف ، الورقة : ١٢٣ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب .

وانظر عن مثل هذه الانفصالات . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٠ ، ص ٢٨٦ .

(٤) الملاح : موضع خارج عدن أبعد من المكسر بينه وبين المكسر ربع فرسخ .أنظر: تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ص ١٩ - ٢٠ .

كل مدرس جماعة يتعلمون على يديه . ويقول الخزرجي « ثم أشار عليه بعض الجالسين باستمرار الامام والمؤذن والخطيب وان يبطل الباقون إلى ان بنى لهم مدرسة في زبيد ... »[1]

ثم أمر بانشاء مدرسة[2] في تعز ، وأوقف عليها أوقافاً جيدة وأوصل اليها الماء ، وابتنى فيها حوضاً لمن يستقى الماء وبركة ، ثم رتب فيها اماماً ومؤذناً وقيماً ومدرساً للشريعة ومدرساً للحديث ومدرساً في النحو ومدرساً في الفرائض وفي كل فن عدة من الطلبة وقرر لهم النفقات التي تقوم بكفايتهم[3] ... وابتنى بها المرافق الخاصة وأوقف فيها عدة من الكتب النفائس في كل فن[4]. وعرفت بالمدرسة الاشرفية .

وانشأ الأشرف في سنة ٧٩٠ جامعاً في ناحية القوز من زبيد فاقيمت به الجمعة لأول مرة في السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة[5] .

ولا يصعب على المرء وهو يتابع مسيرة الملك الأشرف أن يتبين اهتمامه بالمساجد والمدارس ، وتشير الدلائل التاريخيه إلى عنايته بعمارة المساجد والمدارس[6] بزبيد بعد ان كان أكثرها دائراً لا رسم له . فأمر في سنه ٧٩٢ بعمارة واصلاح المدرسة المنصورية لتدريس الفقه الحنفي والحديث والسيفية

---

(١) الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤١٢ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢١ .

(٢) وقد أمر ببنائها في أيام فراغ الخزرجي من جمع كتابه طراز الزمن ، أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٨٥ .

(٣) طراز الزمن ، ج ٢ الورقة ٣٨٥ .

(٤) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٧ .

(٥) ن . م ، ج ٢ ص ١٩٩ .

(٦) جاء في طراز الزمن ، ج ٢ الورقة ٣٨٥ ما نصه « وفي أيامه عمرت جميع المساجد والمدارس في زبيد وما حولها من القرى المنسوبة والمضافة لها وكان ذلك في سنة ٧٩٢ » .

الصغرى والنظامية والعفيفية والميكائيلية ومسجد الاتابك سنقر ومسجد نجم ومسجد الطواشي فاخر ومسجد الطيرة ومسجد السلطان عبـاس الظفاري ومسجد أردمر ومسجد السابلط ومسجد بن الهمام ومسجد الخيزران ومسجد خيلخان ومدرسة التربية ومسجد الصياد بها ومسجد الرنـد ومسجد القرتب وسبيلة بالسبيل القاتني على باب سهام وسبيل المنظر وسبيل فشا . كما أحدث السبيل الذي عـلى باب الجامـــع بزبيد [1] . وكانت كلها داثرة في زمنه فعمرها .

أما المواضع التي كان معظمها خراباً والقليل منها قائم فأصلحها فهي : المدرسة المنصورية العليا والاشرفية والسابقية والسيفية الكبيرة والتاجية الفقهية ومسجد السابق النظامي ومسجد قنديل ومساجد وسبل أخرى لا مجـال لذكرها [2] . وأحصيت المساجد والمدارس في زبيد في زمنه فبلغ عددها مائتين وبضعا وثلاثين موضعاً [3] . وهو عدد لا بأس به حينما نأخذ المدة الزمنية بنظر الاعتبار . وقام الاشرف ببناء القلاع واحدث البساتين واهتم بالزراعة اهتماماً كبيراً [4] .

تعليمه وشيوخه :

لا مجال للادعاء في أن المصادر ذكرت تفاصيل دقيقة عن بدء تعليم الملـك

---

(١) انظر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب .

(٢) انظر حولها : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٤ ؛
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ .

(٣) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٤٤ ابن الديبع ، قوة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٣٢ .

(٤) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٣ ، ص ٢٩٧ . بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب - ١٤ أ .

الأشرف . ولقد ذكرنا أنه أصبح ملكاً بعد والده ولما يبلغ السابعة عشرة من عمره . ولا جدال في أنه نشأ في بلاط ملكي ووسط ثقافي تحدثنا عنه فيما مضى . وجريا على عادة الملوك في تأديب وتعليم أبنائهم ، لا يستبعد انه تتلمذ في هذه المدة على يد شيوخ كفاة [1] ، ولا يستبعد أيضاً أنه قرأ القرآن ودرس الحديث وبعض الفقه والتاريخ والأدب، والراجح أنه تثقف ثقافة خاصة قيضتها له ظروفه الخاصة . ثم لم يلبث في ذلك طويلاً ليجد نفسه أمام واجبات كبيرة، من ادارة وحرب وتنظيم وسياسة وما إلى ذلك . وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه المسؤوليات قضت على طموح الأشرف الثقافي . غير أن هذا الأمر لم يحصل فيما ظهر لنا .

وقد يكون من الضروري أن نشير هنا إلى ثقافة أسلافه من بني رسول ، واهتمامهم بالعلم والعلماء . وظهر من بينهم مؤلفون [2] وقفنا على أهم مؤلفاتهم. وان كلا منهم كان مشتهراً بفن أو علم معين وملم [3] بعلوم أخرى . وعلى العموم فلقد كانوا على معرفة تامة بثقافة عصرهم ، مهتمين ببناء المدارس .وكان والده الملك الأفضل مهتماً بفنون كثيرة لكنه برز في التاريخ والانساب وكانت مؤلفاته مثالاً يحتذى من قبل الأشرف اسماعيل ، بل اعتمد [4] عليها في تدوين تاريخه الكبير المسمى بالعسجد المسبوك ...

اشتغل الأشرف اسماعيل بكثير من فنون العلم كالنحو والاعراب والآداب

---

(١) إن جده الثالث الملك المظفر اتخذ لولده الاشرف عمر الفقيه بن أسعد الحراري سنة ٦٧٨ معلما فأدبه وعلمه . انظر : العسجد المسبوك ، ج ١ ص ٥٦ .

(٢) انظر مثلا الملك الاشرف عمر : في العسجد المسبوك ، ج ١ ص ٥٦ - ٥٨ .
والملك الأفضل عباس : في ن . م ، ج ١ ص ٦٠ - ٦٢ .

(٣) انظر : ن . م ، ج ١ ص ٥٥ - ٦٤ .

(٤) انظر : ن . م ، ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

والتواريخ والانساب والحساب [1] . وكانت له معرفة بالانشاء والنظم وله أشعار حسنة [2] . ودرس الفقه [3] على الفقيه زين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي [4] وكان شيخ نحاة اليمن .

وسمع الحديث [5] على القاضي مجد الدين محمد [6] بن يعقوب الشيرازي الفيروزا باذي الذي كان متجولاً بين الشام ومصر والقدس واليمن والهند .

---

(١) الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٣) انظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٤ . طراز الزمن ، ج ٢ ، الورقة : ٤٠٦ . عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١١٦ - ١١٧ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٤) بفتح الشين المعجمة وسكون الراء بعده جيم . وهو نزيل زبيد وكان بارعاً في العربية مشاركاً في الفقه نظم مقدمة بن بابشاد في الف بيت وشرح ملحة الاعراب وله تصنيف في النجوم. توفي سنة ٨٠٢ . انظر : طاش كبرى زادة (ت ٩٦٨) ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٣ أجزاء تحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور ، القاهرة ، ١٩٦٨ ج ١ ص ٢٢٤ .

(٥) أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٦) كان مجد الدين الفيروزا باذي صاحب القاموس امام عصره في اللغة ويرفع نسبه إلى الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن علي الشيرازي صاحب « التنبيه » المتوفى سنة ٤٧٦ . وعندما ولي القضاء في اليمن ادعى انه من ذرية أبي بكر الصديق ولقب نفسه بالصديقي . وكان قد اشتهر اسمه وهو شاب في الافاق وطلب الحديث وسمع من الشيوخ والكبار كابن الخباز وابن القيم والتقي السبكي وولده تاج الدين وابن نباتة وابن جماعة وآخرين غيرهم . أنظر : طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢٠ .

وعندما دخل زبيد تلقاه [1] الملك الاشرف اسماعيل بالقبول وقرره في قضائها وبالغ في اكرامه ووافق دخوله بها وفاة القاضي جمال الدين الريمي شارح «التنبيه» . وصنف الفيروزا باذي كتاب الاصعاد وأهداه للملك الأشرف على اطباق فملأها له فضة [2] . وكان فقهاء اليمن يجتمعون في منزله بزبيد ويسألونه أن يسمعهم صحيح البخاري فيجيبهم إلى ذلك [3] . وكان في عصره شيخ الحديث والنحو واللغة والفقه والتاريخ ومشاركاً فيما سوى ذلك مشاركة جيدة، وأظهر مترجموه اعجابهم بتفننه في العلوم وكفائته النادرة في عصره ، وبلغت مصنفاته ما يزيد على بضع وأربعين مصنفاً [4] .

وفي سنة ٧٩٨ سمع الملك الأشرف عليه صحيح البخاري من حديث رسول الله (ص) . وكان ذا سند عال من طرق شتى [5] .

ومن شيوخ الأشرف الفقيه موفق الدين علي [6] بن عبد الله الشاوري

---

(١) أنظر : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، (ت ١٠٤١) ، ازهار الرياض في أخبار عياض ، ٣ أجزاء ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري ، ١٣٦١ / ١٩٤٢ ، ج ٣ ص ٤٩ .

(٢) أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٩٧ . قرة العيون، نسخة مكتبة المتحف العراقي، الورقة : ٣٠٦ . مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ . أزهار الرياض ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) لا يتسع المجال لذكر مصنفات الفيروزا باذي ولا مناص من تسمية قسم منها : كالقاموس المحيط، واللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، وشوارق الأسرار ، وتحبير الموشين وغير ذلك في الفقه والتفسير واللغة والتاريخ . أنظر : مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٥) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٦) تفقه الشاوري بالفقيه اسحق بن أحمد بن زكريا وبالفقيه جمال الدين الريمي وتفقه به عدة من أهل زبيد وكان باذلاً نفسه للطلبة إلى أن كانت وفاته في يوم الأحد السابع والعشرين من ثمان وتسعين وسبعمائة . أنظر : الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٨٣ .

أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن . ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

الشافعي . فأخذ عنه الفقه [1] وقرأ عليه شيئاً من « التنبيه » وكان الشاوري وقتئذ أحد من تدور عليه الفتيا في زبيد .

هؤلاء هم الذين ذكرتهم المصادر من شيوخ الأشرف اسماعيل تصريحاً . غير اننا نعتقد أنهم أكثر من ذلك . ومن خلال البحث تبين انه كان يتعلم ويستفيد من كافة الذين عينهم وزراء وقضاة ومستشارين ، وهم نخبة من القضاة والفقهاء والعلماء أمثال الفقيه العلامه جمال الدين محمد [2] بن عبد الله الريمي المتوفى سنة (٧٩٢) ، والقاضي علي [3] بن عمر بن أبي القاسم بن معيبد المتوفى سنة ٧٨٧ .

والقاضي وجيه الدين عبد [4] الرحمن بن محمد النظاري المتوفى سنة (٧٩٥) ،

---

(١) انظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ .

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ص ١٥٣ .

(٢) وكان فقيهاً عالماً محققاً مدققاً بارعاً في المذهب وهو الذي صنف شرح التنبيه في أربعة وعشرين مجلداً . وصحب المجاهد ثم ولده الأفضل ، ثم صحب الأشرف فولاه قضاء الأقضية في المملكة اليمنية باسرها . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٤ ، ص ٢١٨ بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ ب . مفتاح السعادة ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) وكان رجلا كاملا حازماً جواداً ذكياً فهيماً مشاركاً في كثير من العلم محباً للعلم والعلماء .

أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٧٠ . عنوان الشرف الوافي : الورقة : ١٣٤ .

(٤) وكان لبيباً عاقلا شهماً جواداً مشاركاً في فنون العلم .

استوزره الأشرف واستمر إلى سنة ٧٨٤ ثم حصلت منه زلة فخرج لأجل ذلك في البلاد إلى أن توفي سنة ٧٩٥ . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٤٨ . عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ١٣٤ .

والقاضي وجيه الدين عبد[1] الرحمن بن علي بن عباس المقري المتوفى سنة (٧٩٠)، والقاضي زكي الدين أبي بكر[2] بن يحيى بن أبي بكر بن أحمد بن موسى بن عجيل وغيرهم .

اهتمامه بالعلم والعلماء :

اهتم الاشرف اسماعيل بالعلماء[3] وقربهم منه وأدناهم وأكرمهم وشجع أعمالهم . وقد أورد مترجموه أمثلة رائعة في هذا السبيل . وأوجد الاشرف منافسة بين المصنفين باهتمامه البالغ بمصنفاتهم . وبما كان يقدمه لهم من جوائز . ومثل هذا التشجيع لا ينتظر إلا من شخص مدرك لقيمة العلم وفائدته .

وحدث ان صنف القاضي جمال الدين الريمي كتابه المسمى بالتفقيه في شرح التنبيه سنة ٧٨٨ ، وكان أربعة وعشرين مجلداً . ولما حمل هـذا الكتاب إلى الملك الأشرف حباه بثمانية وأربعين ألف درهم تعظيما للعلم ورفعا لدرجته « اذ هو بركة الدنيا والآخرة »[4] وقال ابن الديبع واجـازه السلطان عليه باثني عشر ألف دينار وحصلت بأطباق الفضة ملفوفة بأثواب الحرير والديباج[5] .

---

(١) وهو فقيه له مشاركة في كثير من العلوم وكان نبيها عارفا بارعـاً ذكيا حليما عارفاً بالشرع والنحو والفرائض ويقول شعراً حسناً وولي كتابة الانشاء في الدولة الأفضلية ثم قضاء القضاة في الدولة الأشرفية . أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٠٠ :وعنوان الشرف الوافي . الورقة : ١٣٤ .

(٢) وكان فقيها عالما نبيها فطنا لوذعيا ألمعيا أديبا كامل الأوصاف مشاركا في عدة من فنون العلم وليس له نظير ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣) أنظر :ابن المقرىء ، عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ١٤٤ .
ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ .

(٤) أنظر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٨ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد ، الورقة : ٢٩٨ .

(٥) بغية المستفيد ، الورقة : ١٣ أ - ١٤ .

ولقد سبقت الاشارة إلى كتاب « الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد » الذي يقع في أربعة أسفار ، وهو من مؤلفات القاضي مجد الدين الفيروزا باذي . وكان قد ألفه للملك الأشرف في سنة ٨٠٠ (١) فأعطاه جائزة سنية .

وفي مقدمة كتاب عنوان الشرف (٢) قال مؤلفه ابن المقرىء : أمر بتأليف هذا الكتاب وجمعه السلطان الملك الأشرف اسماعيل بن العباس (٣) ... وهو مشتمل مع الفقه على نحو وتاريخ وعروض وقوافي ، والواقع انه كتاب منقطع القرين فأنت تقرأ كلمة كلمة بشكل عمودي تجد التاريخ وتقرأ أفقياً مستمراً تجد أن المعلومات فقهية وتقرأ أول حرف فقط من كل سطر تجد علماً آخر وتقرأ كلمات متفرقة من كل سطر مدونة بحبر خاص تحمل على علم آخر دون أن تشعر بأن عبارات الكتاب نافرة . ومع ذلك فان قيمته تكون في براعة ترتيبه واحتوائه على علوم مختلفة ، أما معلوماته فليست شاذة في أهميتها عما كتبه الآخرون .

---

(١) أنظر : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٩٧ . قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، الورقة : ٣٠٦ . مفتاح السعادة ، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) واسمه الكامل « عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي » . رأيناه في مكتبة المتحف العراقي ببغداد . وقال عنه صاحب كشف الظنون « كتاب بديع الوصف وان سبب تأليفه أنه كان يطمع في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب القاموس بحيث أن المجد عمل للسلطان الأشرف كتاباً أول كل سطر منه (الف) - فاستعظمه السلطان فعمل الشرف ابن المقرىء كتابه هذا والتزم أن يخرج من أوله وآخره ووسطه علوم غير الفقه الذي وضع الكتاب له لكنه لم يتمه في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر فوقع عنده وعند سائر علماء عصره ببلده موقعاً عجيباً وهو مشتمل مع الفقه على نحو وتاريخ وعروض وقواف . أنظر : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مجلدان ، تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا ، طبع وكالة المعارف ، استانبول ، ١٣٦٠ / ١٩٤١ ، ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ . وقد طبع « عنوان الشرف » طبعة لا تخلو من أخطاء لانها لم تكن مصحوبة بتحقيق دقيق .

(٣) أنظر : عنوان الشرف ، الورقة : ٢ - ٥ . كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦

تلك أمثلة ذكرتها المصادر عن اهتمام الأشرف بالعلم والعلماء وتشجيعه لهم وخلق المنافسة بينهم ، في وقت كانت الكفاءة مقياس مهم . ولعل من هذا الباب قيامه ببناء واصلاح المدارس والمساجد وتجهيزها بما تحتاج لتكون مثابة للطلاب ومؤلاً للعلم والتعلم. أما تشجيعه [1] للأدب والشعر فهو واضح فيما وردنا من أشعار قيلت فيه وفي زمنه .

مصنفاته :

أوضحت المصادر ان الأشرف اسماعيل كان مشتغلاً بفنون كثيرة كالنحو والاعراب والآداب والفقه والتواريخ والأنساب والحساب [2] . وهذا ما أجمع عليه مترجموه . وقال ابن حجر وأحب جمع الكتب [3] . غير أن الذي يبدو واضحاً انه اهتم بالتاريخ .

والذي لاحظناه أن المصادر تشير بأن له مؤلفات غير انها توقعنا بحيرة وتساؤل حينما لا تذكر أسماء هذه المؤلفات باستثناء كتابه العسجد المسبوك ، الذي تمت دراسته وتحقيقه قبل ست سنوات ، فقد ذكرته أغلب المصادر . قال الخزرجي « وله عدة تصانيف مشهورة منها كتاب العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك وله العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية وله مصنفات في النحو وفي الأدب ومصنفات في علم الفلك وغير ذلك » [4] .

---

(١) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٩٧ .

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٢٠٦ . ابن المقرى ، عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٤ . وما بعدها . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي . الورقة : ٣٠٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ – ٢١ .

(٣) أنباء الغمر بابناء العمر ، نسخة مكتبة الأرقاف ببغداد ، الورقة : ١٩٩ .

(٤) أنظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٦ .

لكن من الثابت أن « العقود اللؤلؤية » المذكور هو من مؤلفات الخزرجي نفسه فلماذا نسبه للأشرف [1]؟فقد يقول قائل انه نسبه محاباة أو أنه كان ينتظر مكافأة من الأشرف .. وليكن ذلـــك على سبيل الافتراض . فلماذا لم ينسب الخزرجي اليه كتاباً آخر من مصنفاته غـير العقود اللؤلؤية مثلاً ؟ . ان كتاب العقود اللؤلؤية هو قطعاً من مؤلفات الخزرجي كما يستشف ذلـك من أسلوبه ومادته والطريقة التي دون فيها كمـا انه ذكر فيه ترجمة الملك الأشرف كاملة وأعماله وأخباره ووفاته . ولذلك فلعله أراد القول أن الأشرف أوحى بفكرة الكتاب أو ساهم فيه أو أمر بتأليفه أو ان الخزرجي أراد أن يقدمه للأشرف على غرار كتاب « شرح التنبيه » و « الأصعاد » المذكورين آنفاً .

وهناك أمر لا بد من توضيحه ، وهو اننا وجدنا من ينسب كتاب العسجد المسبوك للخزرجي . على أن التشابه وان كان موجوداً بين عنوان [2] كتاب الأشرف اسماعيل وعنوان كتاب الخزرجي إلا انهما يختلفان في المنحى ، وفي المادة التاريخية الواردة في كل من الكتابين . وربما يكون الخزرجي قد نسب

---

(١) كما نسب السخاوي « العقود اللؤلؤية » للاشرف وذكره مع « العسجد المسبوك » الذي هو فعلا للاشرف وأغلب الظن أنه اعتمد في ذلك على الخزرجي . أنظر الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) لقد انتهينا بعد دراسة دقيقة إلى أن عنوان كتاب الأشرف اسماعيل هو العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك وان عنـــوان كتاب الخزرجي العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك . هذا ولما كان كتاب الخزرجي غير كامل وان الموجود منه فقط البابين الرابع والخامس اللذين يشابها في عنوانيهما أيضاً عنواني البابين الرابع والخامس (من القسم الثاني) في منهج كتاب الأشرف . نقول لعل الخزرجي أكمل كتاب الاشرف عندما وصل فيه إلى الباب الثالث من القسم الثاني من كتابه الكبير . وهذا مجرد حدس وتخمين . ولا سبيل لنا غيرهما في الوقت الحاضر .

وتجدر الاشارة إلى أن دراسة وتحقيق العسجد المسبوك قد أنجزتها قبل ست سنوات . وطبعنا الدراسة مع حوادث وأخبار وتراجم من سنة (٥٧٥ هـ - ٦٥٦ هـ) بجـــزءين في دار التراث الاسلامي ببيروت سنة ١٩٧٥ .

كتابه العقود اللؤلؤية للاشرف في ذات الوقت الذي نسب فيه كتاب العسجد المسبوك المذكور اليه (للأشرف) حتى يقال أن كليهما من تصنيفه .

ولدى الكشف عن رصيد المكتبات المهمة لم نجد من المؤلفات مما ينسب للاشرف سوى كتاب العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك [1] .

طريقته في التأليف :

تختلف طرائق التأليف عند المؤرخين في التاريخ الاسلامي فلكل طريقته الخاصة ، فهناك من يعتمد النقل الحرفي أساساً في تصنيفه ، وهناك من يختصر كتب الذين سبقوه وهناك من يجمع مادة كتابه من مصدرين أو ثلاثة ، كما أن هناك من يجمع مادته من مصادر عديدة ، بينما ذهب قسم آخر إلى المقارنة بين معلومات المصادر المختلفة ونقدها وهناك من يذكر المادة المنقولة ثم يقوم بتذييلها . أما الملك الأشرف فانه « كان يضع وضعاً ويحد حداً ويأمر من يتمه على ذلك الوضع ثم تعرض عليه فما ارتضاه اثبته وما شذ عن مقصوده حذفه وما وجده ناقصاً أتمه » [2] .

ومهما يكن من أمر فان جمع المادة وترتيبها ونقدها والتعليق عليها وتحليلها أو تفسيرها كلها ضروب من التأليف في التاريخ، لكنها تتباين في أهميتها ومدى فائدتها تباين قدرات المؤلفين وقابلياتهم ومدركاتهم وتعليمهم وما إلى ذلك .

---

(١) وانفرد بروكلمان بذكر كتاب الملك الاشرف تحت عنوان : فاكهة الزمان ، أو مرآة الزمن في تخالف أخبار اليمن واحال إلى الخزرجي انظر : ملحق ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

Brockelmam , op . cit , II . P . 236 - 237

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٦ ، ٤ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ . أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

ونحن اذ نكتفي هنا بهـذه الاشارة سنرجىء البحث في أسلوب الأشرف في التأليف إلى مقال آخر يتعلق بدراسة منهج الكتاب .

وكان جهاز حكومته الاداري يعتمد على عدد من القضاة والفقهاء الذين كانوا على جانب من الفطنة والذكاء كما ان أغلبهم كانوا من العلماء فأخـذ عنهم تارة واستمزج آرائهم تارة أخرى فاستوزر عدداً من الفقهاء وولى قسما منهم القضاء الأكبر [1] في أنحاء بلاد اليمن . وكان له قضاة آخرون ينتشرون في مدن اليمن . وان استيفاء البحث عنهم يخرجنا عن الهدف الأساسي الذي تدور حوله هذه الدراسة .

سيرته ومقومات شخصيته :

اتفق مؤرخوه على أن سيرته كانت مهدية محمودة ، وتمثل الرخاء باليمن في ايامه ، وكان مهيباً أديباً حليما وادعا كريما عطوفا رحيما واسع الحلم كثير العفو متحرجاً عن سفك الدماء الا بحق ، شديد البأس حسن السياسة كثير الابتسام محبوباً من قبل الرعية [2] . وقال ابن المقرىء ولم يزل قاصداً طريق الحق حسن الطريقة أميناً على الخليفة إلى أن توفي [3] . وكان يكرم الغرباء ويبالـغ في

---

(١) أنظـر : الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ و ص ١٧٧ و ص ٢١٦ .

(٢) أنظر : الخزرجي ، طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٤٠٥ - ٤٠٦ ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٦٨ ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٨

الكفاية والاعلام ، الورقة : ٢٣٦

السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

ابن الديبع ، قرة العيون ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ، ٣٠٨ - ٣٠٩

أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) عنوان الشرف ، الورقة : ١٣٤ - ١٣٦ .

الاحسان اليهم [1] . واعتبره كل الذين ترجموه من أحسن ملوك اليمن سياسة وضبطاً للامور ، ومدحه جماعة من الشعراء بقصائد عديدة .

وفاتـــه :

في أواخر شهر المحرم من سنة ٨٠٣ حصل للملك الأشرف وعك شديد وقلق اليمنيون لأجله ، ثم من الله عليه بالصحة [2] . ثم عاوده المرض في يوم الخميس الثاني في ربيع الأول فأقام في مدينة حيس أياماً بسبب الألم الذي بجسده. ولا تحدد المصادر نوع مرضه . ثم سار إلى تعز فكان دخوله تعز ليلة الاربعاء الثامن من ربيع الأول فأقام في دار الوعد عشرة أيام مريضاً ثم توفي في ليلة السبت الثامن [3] عشر من الشهر المذكور سنة ٨٠٣ [4] . وتولى غسله بوصية منه القاضي موفق الدين علي بن أبي بكر الناشري وأعانه على ذلك الفقيه جمال الدين محمد بن صالح الدمتي وبعده الفقيه موفق الدين علي بن محمد بن فخر [5] .

---

(١) ابن حجر ، أنباء الغمر ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقـد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) الخزرجي ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٦٨ .

العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٦ .

(٣) قال الخزرجي وابن المقرىء ان وفاته كانت في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣ . انظر : طراز الزمن ، ج ٢ الورقة : ٣٨٥ .

عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) أنظر : ابن حجر ، إنباء الغمر ، الورقة : ١٩٩ . العيني ، عقـد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ .

الكبسي اللطائف السنية ، الورقة : ٢٠٩ .

وانفرد أبو مخرمة بجعل وفاته سنة ٨٠٤ .

انظر تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٢١ .

(٥) الخزرجي ، العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك ، الورقة : ٣٦٨ .

الكفاية والاعلام ، الورقة : ٢٣٦ .

وكان تشييعه إلى تربته والصلاة عليه يوم السبت المذكور فيما بين صلاة الظهر والعصر ودفن في مدرسته الأشرفية التي انشأها في ناحية عدنية بتعز[1] واستمرت القراءة عليه سبعة أيام وصلّي عليه في سائر مدن اليمن وقرىء عليه في كل مدينة سبعة أيام . ورثاه جماعة من الشعراء .

---

(١) ابن المقرىء ، عنوان الشرف ، الورقة : ١٤٤ . ابن الديبع . قرة العيون . نسخة المتحف العراقي . الورقة : ٣٠٨ .

يحيى بن الحسين . انباء أبناء الزمن : الورقة ٩٩ .

الكبسي . اللطائف السنية . الورقة : ٢٠٩ .

الاهتمام بمصادر التراث العربي

بقلم
دكتورة سيدة اسماعيل كاشف
أستاذة التاريخ الإسلامي ورئيسة قسم التاريخ
كلية البنات/جامعة عين شمس

ما قيمة تراثنا العربي الآن ؟. سؤال يلح علي دائماً وأنا أحاضر بين طلابي عن حضارتنا العربية العظيمة ، تلك الحضارة التي فقدت أوربا علماً واديان وفناً وبعدها تقدمت الحضارة الغربية هذا التقدم الرائع الذي نلمسه الآن في كافة ميادين العلم والأدب والفن .

هل حضارتنا العربية الاسلامية أصبحت تراثاً فقط ؟ . أم أنها حضارة غير مقطعة ؟. هل سنكتفي بالقول بأننا كنا وكنا؟. أم أن دراسة أصول حضارتنا والرجوع اليها والافادة منها يساعد على نهضة عربية معاصرة عظيمة ؟..

لقد اهتم المستشرقون في أوربا بتراثنا وحضارتنا العربية الاسلامية اهتماماً كبيراً فأقبلوا على دراستها وعلى دراسة فضل الحضارة العربية الاسلامية على الحضارة الغربية ومنذ بزوغ النهضة الأوربية قامت المعاهد والمدارس في أوربا للتخصص في اللغات الشرقية والدراسات الشرقية . وعني المستشرقون بالبحث عن المخطوطات العربية والاسلامية وبنشرها ودراستها . ولم ينته اهتمام الغرب بحضارتناعند هذ الحد إذ قامت منذ أوائل القرن التاسع عشر في أوربا الجمعيات السيوية والجمعيات التاريخية . ونشر الأساتذة أعضاء هذه الجمعيات كثيراً من البحوث القيمة والمخطوطات الاسلامية . ثم قامت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر سلسلة من المؤتمرات الدولية أقومها للتثبت عن أبحاث ومؤلفات

قيمة للعلوم الشرقية على اختلاف أنواعها ، كما ظهرت دائرة المعارف الاسلامية باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية .

وسرعان ما انتقل الاهتمام بحضارة الشرق تراث الاسلام إلى جامعات أمريكا ومعاهدها وبيئاتها الثقافية .

واهتمت أمريكا اهتماماً خاصاً بدراسة الثقافة الحديثة للعالم الاسلامي ، ومعرفة أثر التراث الاسلامي القديم في حياة الأمم العربية الاسلامية المعاصرة ، وكيف توفق تلك الأمم بين العقيدة الاسلامية وحضارة الاسلام وتراثه ، وبين الحياة العلمية المدنية الحاضرة ، ثم مدى تأثير حضارة الغرب الآن على الأمم الاسلامية .

ولا ننكر اننا – نحن العلماء والمؤرخين – في الشرق أخذنا من المستشرقين والعلماء الغربيين المنهج العلمي لكتابة التاريخ ، وأفدنا فائدة عظيمة من دراسات المستشرقين للحضارة الاسلامية وأثر تلك الحضارة على حضارة الغرب ، وافدنا من المجهودات العلمية المتنوعة لاعلام المستشرقين والعلماء الغربيين على كل شيء .

وبقي علينا – نحن العرب – أن نقدم لوطننا العربي أصول تراثنا الاسلامي وحضارته وأن نقدم الدراسات العلمية التي تقوم على أساس هذه المصادر والأصول ، وأن ندرس ما تستطيع تلك الحضارة أن تؤديه لحياتنا المعاصرة في كافة نواحي العلوم والحياة حتى يمكن لوطننا العربي الوقوف والصمود والتحرر والنهضة .

ومما لا شك فيه أن العلماء والمفكرين المعاصرين في وطننا العربي الكبير قد يعتقدون فيما بينهم اختلافاً بسيطاً أو عميقاً وذلك بقدر التفاوت في تفهمنا لأصول حضارتنا وتفهمنا لأصول الاسلام وأهدافه وتشريعاته ، وصلة الدين بالحياة وبالحضارة المعاصرة .

ولنذكر أن العرب حين خرجوا من شبه جزيرتهم في ظل الاسلام ، وحين سيطروا على معظم العالم المتمدن في الشرق القديم ، لم يحملوا معهم غير دينهم ولغتهم وأدبهم وسموهم الخلقي والروحي ، لكنهم سرعان ما أقاموا حضارة

عربية اسلامية تميزت عن الحضارات السابقة ، والحضارات اللاحقة . ولنذكر أيضاً أن العرب أخذوا عن حضارات الأمم السابقة ، كما ترجموا الكثير من كتب العلم والفلسفة القديمة ، لكن سرعان ما بنوا هم بناءهم الشامخ ولم تكن حضارتهم اقتباساً ونقلاً وترجمة كما يذهب إلى القول بذلك بعض المستشرقين جهلاً أو – تعصباً .

كذلك أثبت العرب ان اللغة العربية – لغة القرآن – لغة حية علمية عالمية فألفوا بها وكتبوا بها في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب والفلسفة . واستوعبت اللغة العربية الحضارة العربية الاسلامية العظيمة ، وأثبتت قدرتها على التعبير العلمي فاشتقت ألفاظاً من اللغات الأخرى ، كما انها اكسبت ألفاظها معاني جديدة .

وترك لنا العرب تراثاً هائلاً وفيراً في كل أنواع العلوم والفنون والآداب باللغة العربية .

والحقيقة التاريخية التي لا تغيب عن أذهاننا منذ أقدم العصور ان جميع الأمم المتحضرة المتمدنة لم ترتجل حضارتها بدون أساس ، ولم تستأنف مدنيتها استئنافاً مطلقاً فالعقل الانساني قابل للتطور والانتقال من حال إلى حال وهذا شأن أمتنا العربية .

فحضارتنا القديمة لم تبدأ من الصفر ولم تقم بطريقة ارتجالية ، فحين اتصل العرب بالأمم الأجنبية بعد الفتح وصلوا بين القديم والجديد ، وربطوا بين أسباب الماضي والحاضر – وطبيعة التطور الحضاري للبشرية تحتم افادة الخلف من جهود السلف – ثم كونوا حضارتهم العربية الاسلامية التي غذت دول الشرق والغرب .

والمعروف ان العرب اتصلوا قبل الاسلام بغيرهم من الأمم اتصال تجاري وسياسي ، ولكن الاسلام دفع العرب دفعاً قوياً إلى التفوق وإلى الحضارة الزاهرة ، بل ان الاسلام نفسه كان الطريق الوحيد لنشر التراث اليوناني والحضارات القديمة بين الشرق والغرب .

وحين غلبت الدولة العربية على أمرها، وحصرت الحضارة العربية في بعض المدارس والمساجد ، انقطع انتاج العقل العربي ووقف نموه . ولهـذا إذا أردنا الاستمرار لحضارتنا العربية الاسلامية،وجب علينا الاهتمام باحياء تراثنا القديم العربي الاسلامي بالاضافة إلى الأخذ بأسباب المدنية المعاصرة كما فعل أسلافنا العرب تجاه التراث القديم وحضارات البلاد المفتوحة .

ولن تكتمل نهضتنا العربية إلا بعـد أن تصبح اللغة العربية لغـة العلم ولغة التدريس في جميع جامعاتنا ومعاهدنا . ان تاريخنا القريب يشهد بأن الغربيين حين اتجهوا نحو الحضارة الغربية ، اخذوا المئات من المصطلحات والألفاظ العربية وأضافوها إلى لغاتهم الأوربية بل ان اللغة العربية ابان نهضة أوربا كانت لغة العلم والثقافة فيها .

وفي عصرنا الحاضر يقبل علماء أوربا وأمريكا على دراسة حضارتنا العربية الاسلامية وأصول تراثنـا بحرص كبير واهتمام عظيم لا يدركه إلا من يزور المعاهد العلمية في أوربا وأمريكا ويرى اهتمام العلماء بدراسة اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي فضلاً عن بحوثهم ومؤلفاتهم واهتماماتهم في هذا الميدان .

والحق أن الغربيين لا يعتبرون تراثنا ارثاً خلفه الاسلام ، بل يعتبرونه معيناً ومنهلا .

وقد آن الأوان لنا ــ بعد أن أطلنا النوم ــ أن نستيقظ يقظة الأصحاء الأقوياء القادرين على بعث نهضتهم ووحدتهم العربية . لقد حان الوقت لنتعاون جميعاً في ميادين العلوم والفنون والفلسفة والآداب دون أن نفقد قومياتنا وشخصياتنا الوطنية وحرياتنا ، ودون أن نتخلف عن المسير في ركب المدنية والحضارة .

وقد اخترت لبحثي جانباً من جوانب احياء نهضتنا العربية وهو الاهتمام بمصادر التراث العربي .

المعروف ان مصادر التراث العربي الاسلامي كثيرة ووفيرة ومتنوعة ،وقد

ذكرت انه بالرغم من عناية المستشرقين وعلماء الغرب بهــذه الأصول والمصادر واهتمامهم بها إلا ان هـذه الأصول والمصادر ما زالت تحتــاج إلى العديد من الدراسات ، ومـا زال الكثير من مصادر تراثنا العربي يحتاج إلى من يلقي عليه الضوء . وحري بنا – نحن العرب – ان ننظر إلى الأمر بمزيد من الجدية حتى نساهم في نهضتنا العربية الحديثة سواء بنشر هذا التراث أو بالدراسات العلمية القائمة على هذا التراث .

ولن يتأتى لنـا ذلك بالمجهودات العلمية المتكافئة من المؤرخين وغيرهم من العلماء في سائر العلوم والفنون والآداب .

أما من ناحيـة الدراسات التاريخية فيجب أن تكون جامعاتنا العربيـة والاسلامية أكبر الجامعات التي تعني بدراسة حضارة المسلمين وتاريخهم كما يجب أن تقوى الصلات وتزداد بين الجامعات العربية ، والهيئات العلمية ، والجمعيات التاريخيـة ، ودور الكتب والوثائق القومية ، والأساتذة الذين يشرفون على الوسائل والبحوث العلميـة المختلفة في وطننا العربي وذلك لاحياء تراثنـا الغني الوفير .

وهنـا أحب أن أشير إلى أن بعض الدارسين للتاريخ العربي الاسلامي لا يفطنوا إلى أهمية تاريخ الحضارة في بحوثهم والواقع ان التاريخ السياسي وتاريخ الحضارة لازمان معاً لفهم ماضي العرب وتراثهم كما هو لازم لفهم ماضي أي أمة فهماً صحيحاً يبرز دراسة الماضي للاستعانة به في فهم الحاضر واعداد العدة للمستقبل ، هذا بالاضافة إلى حاجتنا الشديدة لاحياء تراثنـا وتطوره حتى يلائم عصرنا الحاضر ، ومما يجدر ذكره ان دراسة المجتمع الاسلامي ونظمـه الاقتصادية والاجتماعية ونواحي تقدمه في العلوم والآداب والفنـون لم تكون مجهولة عند المؤلفين المسلمين في العصور الوسطى ، فإننا نجد قسطاً كبيراً منهـا ولكننا لا نظفر بها مجموعة أو مركزة عند طائفة معينة منهم، إذ اننا نعثر عليها في كتب التاريخ والأدب والطبقـات والفقه وكتب الخطط والرحلات وتقويم البلدان. ولهذا لا بد للمشتغلين بتاريخ العرب وتراث المسلمين أن يعنوا بمختلف أنواع الكتب العربية القديمة الـتي تكمل كتب التاريخ وهي كتب الخطط ،

وكتب التراجم وكتب الطبقات ، وكتب الجغرافية أو تقويم البلدان ، ومن الكتب التي يجب أن يهتم بها الباحثون كتب الرحلات . والمعروف أن المسلمين نشطوا في العصور الوسطى في ميدان الرحلات والاستكشافات الجغرافية . وكان من البواعث التي دفعت المسلمين إلى القيام برحلات طويلة روابط الدين واللغه والثقافة التي كانت تجمع بين المسلمين في أطراف دولتهم الكبرى ، فضلاً عن الرحلة في طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج،واتساع نطاق التجارة وانتشار قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد .

وكتب المؤلفون العرب كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين الثالث الهجري والتاسع الهجري (التاسع الميلادي والخامس عشر بعد الميلاد) ولكنهم لم يكتبوا رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها الا نادرا ، أما معظمهم فقد ادمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو الجغرافية .

وليس من شك في اننا نستطيع أن نستنبط الكثير من الحقائق التاريخية من هذه الكتب . ومن كتب الرحلات الهامة رحلة سليمان التاجر العربي في الهند والصين ، والرحلات التي طبعها وترجمها إلى الفرنسية المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى .

ومن الرحلات الهامة أيضاً رحلة ابن فضلان الذي انفذه الخليفة العباسي المقتدر بالله في سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) إلى البلغار باقليم الفولجا وذلك بعد أن اسلم ملكهم وكتب إلى الخليفة رسالة (ان يبعث اليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام ، ويبني له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له) .

والمعروف ان شعب البلغار أسس في بداية العصور الوسطى دولتين أقدمها التي زارها ابن فضلان وانتشر فيها الاسلام في حوض الفولجا الأوسط (أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية) والأخرى في حوض الطونه أو الدانوب .

ونشرت رحلة ابن فضلان لأول مرة بعناية المستشرق الألماني فريهن

Fraehn في سنت بطرسبورج (لينتجراد) في روسيا ١٨٢٣ م بعنوان (رسالة ابن فضلان في الروس) .

وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمة المانية وأضاف اليها المستشرق فريهن ما وجده في كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة .

وأفاد من هذه الرسالة المستشرق الروسي بارتولد في المقال الذي كتبه عن البلغار في دائرة المعارف الاسلامية .

ومن الرحلات المشهورة رحلة ناصر خسرو الفارسي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) الذي قام برحلات طويلة في الشرق الأدنى.

ومن الرحالة المشهورين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ابن جبير الأندلس الذي قام بثلاث رحلات من المغرب إلى المشرق زار خلالها مصر والعراق والحجاز وبلدان المشرق والمغرب وصقلية وجزائر البلبار وسردانية ومن الرحلات المشهورة كتاب «الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» وهو وصف رحلة قام بها إلى مصر طبيب عراقي اسمه عبد اللطيف البغدادي وكتب فيها عن وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري (أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) . وامتاز وصف رحلته بالدقة والتعرف لمختلف الشئون العمرانية والاجتماعية . وقد سجل البغدادي رأياً في الآثار يدل على ان قيمة الآثار لم تكن غريبة على المسلمين في العصور الوسطى فقال «وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار ، وتمنع من العبث فيها والعبث بها ، وان كانوا أعداء لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح: منها لتبقى تاريخاً يتنبه به على الاحقاب ، ومنها انها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك ، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه» .

ومن أعظم الرحالة المسلمين ابن بطوطة وهو من أكثر الرحالة طوافاً في الآفاق وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للاخبار وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها . وبدأ ابن بطوطة رحلته من وطنه في

طنجة في القرن الثامن الهجري ٧٢٥ هـ / الرابع عشر الميلادي ١٣٢٥ م ، وبعد رحلة استمرت أكثر من ربع قرن اختار ابن بطوطة الاستقرار في ديار مولاه السلطان ابن عنان المريني في فاس .

وإذا كنا نتحدث عن ضرورة الاستفادة من كتب الرحلات فإنه ينبغي الا يغيب عن اذهاننا ما يمكن أن نفيده من رحلات الأوربيين في العالم العربي الاسلامي مثل ماركو بولو ، ونيبهر Nirbuhr ، وفون ملتزان Von Maltzan وبوكوك Pococke ، وبترمان Petermann ، والفاريز Alvarez ، وباومجارتن Baumgaten ،ودوش Doutte ، وسنوك هرجرونيه Snouck Hurgrnoje ، وتافرنييه Tavernier ، وتيفنو Thevenot ، وتورنفرت Tournefort ، وغيرهم .

ومن المصادر التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار القصص الشعبية وكتب الأدب .

أما القصص الشعبية فلا يمكن أن نتجاهلها كمصدر من مصادر تراثنا ولكن استنباط الحقائق التاريخية منها يجب أن يكون بحذر كبير وذلك لأنها اعتمدت في البداية على الرواية الشفوية فحسب ولم تسجل إلا في عصور متأخرة، فضلا عن ان هدف هذه القصص كان المفاخرة وتسلية السامعين وكسب اعجابهم بمواقف الأبطال وسائر المواقف المثيرة في القصص .

أما الكتب الأدبية القديمة فهي معين لا ينضب للحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى ولا سيما من نواحي الذوق والعادات والمقاييس الخلقية والمثل العليا ومستوى المعيشة والاعياد وأساليب التسلية وأحوال المدن وغير ذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية فضلاعن اننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسي وتراثنا العربي غني بالكتب والموسوعات الأدبية المطبوعة والمخطوطة .

ومن تراثنا العربي الذي يجب أن نهتم به اهتماماً كبيراً كتب الفقه . والفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس

والاجماع. والحق انه لا بد لنا من فهم الاسلام كما فهم في العصر الذهبي للمسلمين، ولا بد للمجتمع العربي الاسلامي المعاصر أن يستند الآن على الدراسات العلمية الجادة في شتى نواحي الحياة بعد أن وصل العالم المعاصر إلى ما وصل اليه من التطور.

والانتفاع بمزايا العلم ليس معناه أن نضحي بالقيم الروحية والدينية، وهذا الأمر ليس جديداً على العرب أو الاسلام فقد بدأ ذلك حين واجه الاسلام علم الاغريق وفلسفتهم وعلوم وحضارات الأمم التي سيطروا عليها أو اتصلوا بها.

وكان الفقهاء يتجهون في بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب، وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالاشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية وإلى الاخلاق والعادات وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب.

والواقع ان ما كتبه الفقهاء من هذه البدع وما نقرأه في مؤلفاتهم من الفتاوى في القضايا والحالات المعينة التي يطلب اليهم الفتيا فيها من قبل أولي الأمر والأمراء، يعتبر مصدراً ثميناً للمعلومات عن الأحوال التي كان المسلمون يعيشون فيها والمشكلات التي كانت تطرأ في حياتهم والعادات التي كانت تنتشر بينهم.

ومع ان كتب الفقه تعتبر من المصادر الرئيسية للمؤرخ العربي فضلا عن أنه لا بد من الاهتمام بها في عالمنا العربي المعاصر، إلا أنه ينبغي على المؤرخ أن يكون حذراً فيما يستنبطه من كتب الفقه، فإن ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظرياً وبعيداً عن الواقع كما ان الدراسات الفقهية لبعض النظم ليست شاملة جامعة.

ومن مصادر التراث العربي التي لا غنى عن دراستها دراسة علمية كتب الحسبة والحق ان الدراسة العلمية للحسبة في الاسلام تعكس احدى الصور المشرقة لحضارتنا العربية فهي تبين مدى اهتمام أولي الأمر بالاشراف على جميع أنشطة الناس في حياتهم الدينية والاجتماعية والصحية والاقتصادية.

ومن مصادر تراثنا التي لا بد لنا أن نعطيه حقه من الاهتمام، علم الآثار الاسلامية العربية.

ولا بد لمؤرخ التاريخ الاسلامي أن يكون له إلمام بالآثار الاسلامية ، أو يحسن – على الأقل – استخدام النتائج العلمية التي وصل اليها علماء الآثار الاسلامية وحسبنا أن نذكر ان اعلام المؤرخين للتاريخ الاسلامي من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر كانوا من علماء الآثار الاسلامية مثل مرجليوث ، وتوماس ارنولد ، ولين بول ، ولوسترنج من الانجليز ، ومبكر ، وكالة من الألمان ، وبلوشيه ، وسوفاجيه وفت ، وجورج ماسيه ، وليفي بروفنسال من الفرنسيين .

ولا شك ان ربط الآثار مع كتابات القدماء تساعد في تأييد أقوال المؤرخين أو اثبات أخطائهم ،فضلا عن أن الأدلة المادية قد تكشف لنا في كثير من الأحيان عن حقائق لا تعرض لها كتب الأدب والتاريخ .

أما الدراسات المختلفة التي تؤلف علم الآثار الاسلامية والتي يجب أن نستخدمها لدراسة تاريخنا العربي والافادة من هذه الدراسة فهي :

١ – دراسة الوثائق والأوراق البردية .

٢ – دراسة الكتابات التاريخية الأثرية على العمائر والتحف وشواهد القبور .

٣ – دراسة السكة أو النميات .

٤ – دراسة العمارة والفنون الاسلامية .

والحق أن المستشرقين يعنون عناية وافرة بدراسة هذه الأدلة المادية ، أو بجمعها وتنظيمها والتعليق عليها ، وذلك لما لها من شأن خطير وفائدة جليلة في دراسة الحضارة والمدنية الاسلامية وتطور الحياة العقلية والسياسية والأدبية للامم العربية الاسلامية .

ونلاحظ أن معظم الوثائق الورقية التي حفظت في ديار الاسلام قبل العصر التركي هي وثائق الوقف ، ومعظم هذه الوثائق محفوظ بين وثائق المحاكم والحكومات أو وزارات الأوقاف أو البطركيات أو دور الكتب والوثائق القومية .

أما العقود التي كان يحررها الواقفون والتي وصل الينا منها عدد كبير جدا فهي تضم وصف العقار وأهداف الواقف وأموراً كثيرة نستنبط منها معلومات كثيرة عن المجتمع وعن حياة الناس اليومية ومعاملاتهم وعن المصطلحات المعمارية والقانونية والادارية وعن تربية الايتام والنشء وعن البيمارستانات وعن علم الطب والأطباء وعن العناية بالكتب والمكتبات الخ ...

وقد ذاع نظام الوقف في العصور الوسطى وأقبل الناس عليه إما بدافع من التقوى للقيام بالمشروعات الخيرية كبناء المساجد والمدارس والبيمارستانات والسقايات والمكتبات العلمية الكبيرة ، وضمان الانفاق على صيانتها بعد وفاة المؤسس ، واما للحيلولة دون تجزئة الثروة بسبب الارث إذ يصبح العقار سليما يمكن استغلاله باشراف ناظر الوقف ويوزع الدخل على ذرية الواقف .

ونلاحظ أن بعض المؤرخين والكتاب المسلمين في العصور الوسطى نقلوا صور وثائق حكومية في مؤلفاتهم. ومع أننا قد نفيد من هذه الصور في استنباط كثير من البيانات (أنظر حميد الله الحيدر بادي : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة - القاهرة - ١٩٤١ م ، وجمال الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨ م) ، إلا ان مثل هذه الفائدة محدودة لسببين رئيسيين :

الأول : اننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الصور فقد تكون منقولة عن كتب أقدم وليست عن الوثائق الأصلية نفسها ، وقد تكون موضوعة أو منتحلة لتأييد وجهة نظر خاصة ، فضلا عن أن نقلها على يد الكتاب من جيل إلى جيل قد يكون سبباً لادخال كثير من التحريف والتصحيف والحذف والاضافة وما إليها .

أما السبب الثاني فهو أن هذه الصور المنقولة عن الوثائق الأصلية قليلة التنوع فلا تكاد تتجاوز بعض المراسلات والخطب والمحادثات . وعلى رأس المؤلفون العرب الذين نجد في مؤلفاتهم عدداً كبيراً من مثل هذه الوثائق المنقولة القلقشندي في كتابه صبح الاعشى في صناعة الانشا .

أما الأوراق البردية فان كثيرين من مؤرخي التاريـــخ العربي الاسلامي لا يهتمون بدراستها فضلا عن أن كثيرين لا يعرفون أي شيء من علم قراءة الأوراق البردية .

ويعتبر المستشرق النمسوي الاستاذ آدولف جرومان A . Grohmann الحجة في دراسة الأوراق البردية إذ وقف جزءاً كبيراً من جهوده العلمية على درس أوراق البردي ونشر أبحاثا وكتبا كثيرة عنها .

وأصدر له دار الكتب المصرية في القاهرة مؤلفاً في سته أجزاء ترجـــم الاستاذ المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن جزءاً منه والباقي ترجمه الدكتور عبد العزيز الدالي .

كذلك كتب كارابتشك Karabacek وجرومان عن أوراق البردي المحفوظة في مجموعة الارشيدوق رينر Rainer بالمكتبة الأهلية في فيينا .

وكتب مارجليوث سفراً ضخماً عما في مكتبه جـــون رايلاندز (بمدينة مانشستر) في انجلترا . وكتب المستشرق الألماني بيكر Becker عن أوراق البردية في مجموعة شوت راينهارد Schott - Reihhardt وكتب أيضاً عن مجموعه افروديت (افروديتوا وافروديت هو الاسم اليوناني لقرية كوم اشقاو في صعيد مصر والتي كانت تعرف في العصر الاسلامي باسم اشقوه) في المتحف البريطاني التي كتب عنها أيضاً بل H . J . Bell وكروم W. E. Crum كذلك نشر كثير مـــن الأوراق البردية على يد هوفمير Hofmeier ودي ساسي De Sacy وماسبيرو Maspero وابوت N . Abbot ويمكن للمؤرخ أن يعرف مثل هـذه البحوث والمقالات وذلـــك بالبحث والاستقصاء في فهارس دور الكتب .

والواقع ان الأوراق البردية لها شأن كبير في دراسة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العربي الزاهر ، اذ أن من بينها نصوصاً تتعلق بالجزية والخراج ، واسناد المناصب ، وأنظمة الادارة ، وطرق التجارة وبنــاء العمائر والمساجد ، وانشاء الاساطيل ، وثمان البضائــع والبيوت والاراضي

الزراعية ، فضلاً عن عقود الزواج ، والبيع والشراء ، وما إلى ذلك من المكاتبات .

والحق ان هذه الأوراق فضلاً عن قيمتها التاريخية بوصفهـا من المراجع الأصلية فهي تمتاز بأنها معاصرة للحوادث التي تسجلها ومحايدة ، كما انها تصلح بعض النقص الذي يسببه تحيز بعض المؤرخين المسلمين لتاريخ الأسرة التي كتبوا في ظلها ، أو تعصبهم لمذهبها ، كما انها تسد فراغاً كبيراً في بيان النظم الادارية والمالية وأحوال المجتمع .

كذلك يجب أن يهتم مؤرخو التاريخ العربي بالنقوش الكتابية التاريخيـة الأثرية ، فهي كتابات محايدة في معظم الأحيان ومعاصرة للاحداث التي تسجلها ، ولم تتغير من ناقل إلى ناقل أو من راو إلى راو . وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجـد وفي التحف الاثرية وعلى شواهد القبـور وفي الأضرحة والتكايا والمنازل وسائر العمائر وعلى المنسوجات . وقد وصل الينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة . والمعروف أن العرب أقبلوا على الكتابة إلى حد كبير كالفراعنة القدماء وذلك لأنهم اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية . ومن باب الحق أن نقول ان الكتابات الأثرية الاسلامية لا تضاهي في قيمتها التاريخية الكتابات الأثرية الفرعونية والسبئية واليونانية واللاتينية وذلك لأن الكتابات في التاريخ القديم لها شأن عظيم بالنسبة إلى قلة المصادر المدونة .

أما الكتابات الأثرية الاسلامية فإنها ليست إلا مصدراً تقف إلى جنبه مئات الكتب التاريخية والأدبية وغيرها مما سبق أن أشرنا اليه والتي تعتبر من المصادر الأساسية في دراسة تاريخنا العربي .

ونلاحظ كذلك أن الكتابات التاريخيـة العربية ينقصها التنوع ، ويكثر فيها التكرار ، ويغلب عليها كتابة آيات القرآن الكريم والترحم على الموتى أو كتابة الأدعية المختلفة لصاحب التحفة ، أو لمشيدي المساجد والمدارس والسبل والعمائر أو الاشادة بذكر الخليفة أو السلطان أو الأمير مع بيان ألقابه . هـذا بالاضافة إلى أن ما وصل الينـا من الكتابات التاريخية الاسلامية العربية في

(٩)

بعض أقاليم الدولة العربية نادر بحيث لا يستطيع هذا المصدر أن يفيدنا كثيراً في دراسة تلك الأقاليم . وبرغم كل ما ذكرناه عن الكتابات التاريخية الاثرية فإن ذلك لا ينقص القيمة التاريخية لها بوصفها مصدراً من المصادر الاصلية في دراسة التاريخ العربي . وتمتاز الكتابات التاريخية بأن تواريخها صحيحة ، كما يقل التحريف والتصحيف في الاسماء المختلفة فضلاً عن أنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين وتلقي ضوءاً في بعض الاحيان على الادارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والاقتصادية . كذلك تحدد هذه الكتابات تاريخ التحف والعمائر فتسدي أجل خدمة لتاريخ الفن ولعلم الآثار بوجه عام .

والطريقة المثلى في الافادة من النقوش الكتابية الاثرية هي الموازنة بين نصوصها وبين الحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية ، واظهار ما يمكن استنباطه منها مؤيداً للحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية أو مخالفاً لها . وعلى رأس من قاموا بمثل هذه الدراسات الفنية المستشرق السويسري ماكس فان برشم Max Van Berchem الذي يعتبر بحق رائد المشتغلين بعلم الكتابات الاثرية الاسلامية .

ويعتبر جامع الكتابات الاثرية العربية Corpus Inscriptionum Arabicarum للمستشرق فان برشم وبعض زملائه وتلاميذه والسجل التاريخي للكتابات العربية Repertoire Chronologique D'Epigraphie Arabe للمستشرقين فييت G. Wiet وكومب Et. Combe وسوفاجيه J. Sauvaget وبعض المشتغلين بالآثار الاسلامية والتاريخ الاسلامي ، من المصادر الخطيرة الشأن بما تشتمل عليه من كتابات تاريخية تكشف عن كثير في حياة بناة العمائر وأصحاب التحف، وفي تطور الانظمة والعادات ، والاحداث السياسية والعلاقات التجارية وغير ذلك،فضلا عن أنها تكشف عن أسماء بعض المهندسين والصناع والفنيين .

ومن المصادر المادية الهامة التي تكشف عن تراثنا العربي علم النميات أو النقود أو السكة .

وكان ضرب النقود في ديار الاسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية

من خليفة أو سلطان أو أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام . ودراسة السكة من الدراسات التي يفيد منها تاريخنا العربي أكبر فائدة ولا سيما التاريخ السياسي . وتشتمل الكتابات المنقوشة على السكة على ألقاب الامراء والحكام وتاريخ الضرب وبعض عبارات خاصة بمذهبهم الديني . فهي بذلك سجل للالقاب والاسماء ، كما انها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ومدى هذا الاستقلال . وعلاوة على هذا كله فإن السكة الاسلامية تخلد اسماء مدن كانت تضم دوراً لضرب - النقود مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إداري كبير .

كذلك يشير العثور على كميات من السكة الاسلامية في كثير من الاحيان إلى الآفاق البعيدة التي امتدت اليها التجارة الاسلامية، كما يشير في الوقت نفسه إلى أنواع السكة التي كان الاقبال عليها عظيماً . وحسبنا ذلك العدد الوفير من السكة الاسلامية التي عثر عليها الباحثون والمنقبون في شبه جزيرة اسكندناوه وشمول روسيا وبلاد الصين وأواسط أفريقية وبعض جزر المحيطات الهندي والهادي والاطلسي وغيرها من أصقاع العالم لنستنتج مدى عظم نشاط العرب في التجارة والرحلات .

والحق أن العرب ابان حضارتهم الزاهرة في العصور الوسطى نشطوا في الرحلة وطلب العلم والتجارة في مختلف البلدان الاسلامية وفي غيرها من البلدان والاصقاع التي لم يسمع الاوربيين بوجودها في العصور الوسطى أو شكوا في وجودها .

وجدير بالذكر أن دراسة السكة الاسلامية ترتبط ببعض المسائل الشرعية مثل الزكاة والدية والصداق . والمعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقر العملة الذهبية والفضية الموجودة في عهده . ويتضح لنا من دراسة النصوص القديمة أن سعر الدينار أو المثقال كان يساوي عشرة دراهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عهد الخلفاء - الراشدين ولم يكن الدرهم جزءاً من الدينار وإنما كان هذا نقداً على أساس الفضة وذلك نقد على أساس الذهب ولكل من النقدين وحداته .

وطبيعي أن ثمن الدينار والدرهم – إذا اعتبرناهما بالوزن أو سلعة ذهبية أو فضية – قـد تغير منـذ فجر الاسلام إلى الآن ، كذلك فإن قيمـة الدينار والدرهم قـد تغيرت تغيراً كبيراً منذ فجر الاسلام إلى الآن وذلك لتغير قوتهما الشرائية .

وقد عني الغربيون كثيراً بما في المتاحف والمكتبات والمجموعات الاثرية الخاصة من قطع العملة الاسلامية فصوروها ونشروا لهاالفهارس العلمية . فكتب لادوسو H. Iavoix عن النقود الاسلامية في المكتبة الاهلية بباريس ، وكتب كاستليوني Castillioni عن المحفوظ منهـا بمتحف ميلانو وكتب فون فرين Von Fraehn ومار كوف A. De Markof هما في متاحف منت بطرسبورج (لينتجراد) ، ونسلمان G. F. Nesselmann عما في متحف العملة بمدينة كونجن برج بألمانيا ، وستانلي لين بول Lane - Poole عما في المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية . كما ألف هانس J. Hins ، ومولر J. H. Moeller ، وسوفير Sauvaire ، ويتراستسكي J. Pietraszewski وارتين باشا ، واسماعيل غالب ، وأحمد توحيد ، ونلس رايت Wright ، وروجر بك E. T. Rogers ومحمد مبارك ، وماوس Mauss وبونجفلايش Jungfleizch وغيرهم المؤلفات الوافية في هذا الموضوع .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الكتاب القيم الذي أخرجه العـالم العراقي الأب انستاس مـاري الكرملي البغدادي سنة ١٩٣٩ م في القاهرة وسمـاه النقود العربية وعلم النميات ومن الكتب المفيدة في النقود أيضاً كتاب الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ، تأليف ناصر السيد محمود النقشبندي ، وهو من مطبوعات المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥٣ م .

أما العمارة والفنون الاسلامية فإنها ذات شأن عظيم في تاريخ المدنية العربية الاسلامية ذلك ان دراسة العمائر والتحف تلقي الضوء على كثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما تكشف عن مستوى المعيشة وازدهار الصناعة أو تدهورها ، كما تبين تطور العلاقات بـين الأقاليم المختلفة في ديار الاسلام ، وبينها وبين سائر انحاء العالم . وإذا أردنا أن ندرس الأزياء

والملابس والأسلحة والحلى فلا يكفي أن ندرس ما وصل الينا من المنسوجات الأثرية والأسلحة والحلى القديمة لأن ما وصل الينا منها قليل ، وإنمـــا يجب أن ندرس الرسوم الادمية في الصور الموجوده في المخطوطات وفي الرسوم الموجودة على التحف والرسوم المستقلة ذلك اننا نخرج بأشياء كثيرة لا نجدها في الكتب أو لا تستطع الكتب التعبير عنهـــا . كما ان دراسة الرنوك الاسلامية – أي الشارات التي كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم – على العمائر والتحف تكشف عن كثير من جوانب نظم الفروسية والاقطاع في العصور الوسطى .

ولا شك أن عنـاية الدول العربيـة الاسلامية بعمائرها وفنونها تساعد على حفظ تراثنا العريق كما انها من مصادرنا الأصيلة فضلاً عن أنهـا معين ومنهل غني لحضارتنا العربية المعاصرة .

كذلك يجب على الباحثين في تاريخنـا العربي الاسلامي أن يكونوا على اتصال بالهيئات العلمية المختلفة للوقوف على الكتب والأبحاث المنشورة، وللوقوف على ما يشغل ذهن الغربيين والمستشرقين وأساتذة التاريخ الاسلامي في الشرق من المسائل والنظريات والحلول التي تراها كل مدرسة للمشاكل المعينة فضلاً عن الأحكام الـتي ينشرها الأساتذة خاصة بالمراجع والأبحـاث المختلفـة ، ليتيسر للباحثين أن يعرفوا الأساتذة والباحثين الذين اختصوا بدراسة النواحي المختلفة في التاريخ العربي الاسلامي .

والمعروف أن المستشرقين في شتى البـلاد الأوربيـة والامريكية أنشئوا المجلات العلمية لنشر أبحاثهم وتسجيل نظرياتهم ويحتوي بعض هذه المجلات على مقالات وأبحاث لها قيمة علمية كبيرة وذلك لأن كتاب هذه الابحاث اما أساتذة في تخصصاتهم أو نوابغ الباحثين الناشئين . وقد ترشد هذه المقالات والابحاث الممتازة جمهور الباحثين إلى كثير من المصادر ، كما انها تمثل جهود علماء يقفون جزءاً كبيراً من وقتهم لبحث إحدى المسائل التي تفوق في أهميتهـا كثيراً من الكتب الضخمة .

ولا شك أن أكثر ما يكتبــه المستشرقون دقيق ومنظم وعلى أساس المنهج العلمي السليم ، أمـا عيوب التعصب فمن السهل على الباحثين إدراكها والتنبيه إلى أن بعض هؤلاء المستشرقين يجحف في تفسير بعض النصوص التاريخية ،أولا

يهمل ما لا يتفق ورأيه ، أو يغض الطرف أحياناً عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية أحكاماً عامة . ومع ذلك فإنه من السهل على الاساتذة والباحثين إدراك عيوب التصعب والحذر من شرها . ومن باب الحسن والانصاف أن نقول أن الروح التي تسود المستشرقين اليوم في الكتابة عن الاسلام وحضارة العرب ليست هي الروح التي كانت تسود أكثرهم في الجيل الماضي ومن ثم فإنهم في الجملة أكثر انصافاً الآن منهم في الماضي .

وبعد فإنه من الواجب على القائمين بدور الكتب في البلاد العربية الاسلامية ضرورة عمل فهارس لها بطريقة علميـة وتبادل هذه الفهارس لكي يعم النفع ويسهل الانتفاع بما تحتويه هذه الدور .

وقبـل أن أختم كلمتي أحب أن أنوه إلى أن معهـد المخطوطات بجامعة الدولة العربية يقوم منذ سنتين باصدار نشرة بعنوان أخبار التراث العربي يحاول فيها التعريف بجوانب النشاط العلمي في البلاد المختلفة التي تضم مخطوطات عربية وإسلامية فضلا على التعريف بالمجلات العلمية التي ترد إلى المعهد وأسماء بعض الباحثين وموضوعات أبحاثهم .

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل لهؤلاء الذين قاموا باعداد هذا المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار فقـد أتاح لنا فرصة اللقاء وتبادل الآراء ونرجو أن يتكرر اللقاء في أماكن مختلفة من الوطن العربي الكبير ونحن نسير قدماً في طريق التحرر والتقدم والنهضة والعزة .

ملامح من النهضة العلمية في العراق في العصر البويهي

الدكتور محمد حسين الزبيدي
كلية الآداب / جامعة بغداد

لقد اشتهر في هذا العصر عدد كبير من علماء الرياضيات . وقد أضاف هؤلاء اضافات جديدة إلى هذا العلم لم تكن تعرف من قبل .

فقد اكتشف العالم البوزجاني بعد الخلل في حركة القمر. كما أوجد الخوارزمي طريقه جديدة في عمل جدول الجيب ودرس الظل وعمل جدولا للقاطع وقاطع تمام .

وقد وجدنا في هذا العصر ولأول مرة عند العرب حلولا للمعادلات غير المحدودة كبقية المعادلات على أساس الطرق التي اتبعها ديوفنطس .

وكذلك بحث أبو الفتح الخازن كيفية ايجاد الكثافة للاجسام الصلبة والسائلة معتمد على كتاب البيروني ، كما اخترع الخازن أيضاً ميزاناً لوزن الأجسام في الهواء والماء . وقد قدّر أيضاً الكثافة لكثير من العناصر والمركبات لدرجة كبيرة من الدقة. وفضلا عن ذلك فقد أشار الخازن إلى مادة الهواء ووزنه وبيّن أن للهواء وزناً وقوة رافعة كالسوائل، وان وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي وان مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء .

وقد ساعدت دراسة الخازن هذه العلماء الاوربيين على اختراع البارومتر ومفرغات الهواء والمضخات وغيرها ، وبهذا يكون الخازن قد سبق : باسكال، تورشلي وبويل وغيرهم .

وقد وضع هؤلاء العلماء كتباً كثيرة في الرياضيات ظلت مرجعاً للباحثين والدارسين عصوراً طويلة ، فقد ألف أبو الوفاء البوزجاني كتابه المشهور : (كتاب في منازل الحساب) وهو كتاب يحتاج اليه العمال والكتاب في صناعة الحساب ، وضع أيضاً كتاب في الجدول السيني .

كما وضع أبو بكر الكرخي كتبا عدة منها كتابه (الكافي) وكتاب (الفخرى في الجبر والمقابلة) ووضع أبو الفتح الخازن كتابه الشهير (ميزان الحكمة) وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أجنبية وهو الأول من نوعه بين الكتب العلمية القديمة . وقد وصف العالم (سارتون) هذا الكتاب بقوله انه من أجل الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات وأروع ما انتجته القريحة في القرون الوسطى ، ومن علماء الرياضيات في العصر هم .

١ ـ أبو اسحق الحراني الصابي :

وهو ابراهيم بن سفيان بن ثابت بن قرة الصابي .

ولد في مدينة بغداد سنة ٢٩٦ هـ ـ ٩٠٨ م وتوفي فيها ١٥ من شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م وقد أدرك العصر البويهي واشتهر بالعلم الغزير والذكاء واشتهر بـ الهندسة والفلك وغيرها من العلوم وهو أبي اسحق ابراهيم بن هلال الصابي الحراني المعروف . ألف أبو اسحق كتب كثيرة هي .

١ ـ كتاب في حركات الشمس وقد طبع هذا الكتاب ١٩٤٧ م

٢ ـ كتاب في مساحة قطع المخروط المكافي .

ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب كتب سنة ١١٥٩ هـ وطبع سنة ١٩٤٧ م .

٣ ـ كتاب في الدوائر المتماسة .

٤ ـ كتاب في أصول الهندسة ، وهو ترجمة لكتاب المأخوذات في أصول الهندسة لأرشميدس الحكيم .

٥ – ثلاث عشرة مقالة في الهندسة . منها احدى عشرة في الدوائر المتماسة بيّن فيها على أي وجه تتماس الدوائر والخطوط التي تجوز على النقط .

٦ – رسالة في الاسطرلاب . – وقد طبعت في الهند في مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد • الركن سنة ١٩٤٣ م •

٧ – رسالة بيّن فيها الوجـه في استخراج المسائل الهنـدسية بالتحليل والتركيب • وبيّن فيها ما يعرض للمهندسين أو يصيبهم من الغلط والخطاء فـيما يسلكون إلى طريق التحليل وقد أوجد أكثر من رسم طريقاً للمتعلمين يشمل على جميع ما يحتاج اليه في استخراج المسائل الهندسية من المهندسين • توجد منها نسخة ناقصة مكتوبة سنة ٦٢٣ هـ بالموصل في عشرين ورقة وتوجد نسخة مصورة لهذه المخطوطات في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية أخذت على نسخة الموصل تحت رقم ١٣٨ رياضيات •

٨ – رسالة في رسم القطوع الثلاثة • شرح فيها كيف توجد نقطة بأي عدد شئنا على أي قطع أردنا وقد سلك فيها طريقاً يختلف عـن الطريق الذي سلكه في الثلاثة عشر مقالة وتوجد نسخة مخطوطة في مدينة الموصل كتبت سنة ٦٣٢ هـ نسخت بخط نسخ واضح في ثـلاث ورقات وتوجـد منها نسخة مصورة في معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية تحت رقم ١٣٦ رياضيات صورت على نسخة الموصل وطبعت هذه الرسالة سنة ٩٤٣ م ذكرها بروكلمان في ج ١ ص ٢١٨ وذكر عباس العزاوي أن في خزانة (باكي فور) توجد نسخة من هذه المخوطات ضمن مجموعة برقم ١٥١٩ كتبت سنة ٦٣١ هـ .

٩ – تفسير المقالة الأولى من المخروطات .

١٠ – آلات الظل .

١١ – كتاب في مساحة قطع المخروط الذي يسمى (المكافيء) وتوجد في مكتبة أيا صوفيا باستنبول مخطوط من هذا الكتاب تحت رقم ٤٨٣٢ ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة من هـذا المخطوط فيه أشكال متقنة كتب سنة ١١٥٩ هـ طبع سنة ١٩٤٧ م .

١٢ - مقالة احتوت على احـــدى واربعون مسألة هندسية من المثلثات في الدوائر والخطوط والدوائر المتماسة [١] .

٢ - أبو النصر محمد عبد الله الكلواذي :

وهو من (قرية) كلواذي ببغداد توفي سنة ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م كان عالمـــاً بالخطب والهندسة والهيئة عاش في القرن الرابع الهجري وادرك ولاية عضد الدولة في العراق ويعد من رياضي القرن الرابع الهجري المشهورين وقد أشار القفطي اليه (بأنه مهندساً ومنجماً)[٢] ألف كتب عدة منها .

(١) كتاب التخت والحساب [٣] ويبحث في الأعمـــال الاساسية للحساب والهندسة .

(٢) رسالة في الهندسة وتبحث في تقسيم الأشكال إلى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضة بخط مستقيم ترسم (٢٢) اثنان وعشرون قصة سبع في المثلث وتسع في المربع وست في المخمس .

(٣) كتاب تقسيم الطرح .

٣ - أبو الوفاء محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني : -

(٣٢٨ - ٣٨٨ هـ) (٩٤٠ - ٩٨٨ م)

ولد في مدينة البوزجان من مـدن نيسابور (قرهستان) في رمضان سنة

---

(١) تراجع هذه المراجع :

أ - تذكرة النوادر من المخطوطات العربية . طبعت في مطبعة دائرة المعارف بحيدراباد

ب - فهرس المخطوطات . دار الكتب المصرية ، ج ٥ ص ١٩٧

جـ - معهد المخطوطات المصورة . جامعة الدول العربية ج ٣ ص ٩٠ .

(٢) القفطي . - أخبار العلماء ص ١٨٩ .

(٣) ابن النديم . - الفهرست ص ٣٩٦ . القفطي . أخبار العلماء ص ٢٨٩ .

٣٢٨ هـ وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨ هـ فقرأ العدد والهندسة على أبي يحيى الباوردي وأبي العلاء بن كرنيب وبرز في هـذا المجال ويعتبر أبو الوفاء من مشاهير علماء الرياضيات توفي في بغداد سنة ٢٨٨ هـ [١] .

وقد أثنى ابن [٢] خلكان عليه وعلى علمه بقوله انه (أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها . وقد ألف كتب عدة وله في استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع) وقد أضاف القفطي إلى قول ابن خلكان قائلاً (بلغ المحل الأعلى في الرياضيات وكان نقي الجيب من عثرات الدنيا قانعاً بما عنده [٣]) .وقد استطاع هذا العالم الجليل أن يضيف اضافات إلى علم الرياضيات والفلك . فقد اكتشف بعد الخلل في حركة القمر . كما اخترع بعض الأدوات الهامة الـتي تستخدم اليوم في الرياضيات وغيرها . كما اخترع المسطرة والبركار والكونيا . كما أجرى عدة شروع على كتب من سبقوه من علماء رياضيات اليونان والعرب امثال. اقليدس وابرخر وديوفنطس والخوارزمي وأجد طريقة جديدة في عمل جداول الجيب ودرس الظل وعمل جدولا للقاطع وقاطع تمام وقد أورد لنا ابن النديم عدداً [٤] كبيراً مـن مؤلفاته في مختلف العلوم الرياضية منها .

١ — كتاب في منازل الحساب [٥] كتبه للأمير عضد الدولة البويهي . وهو كتاب يحتاج اليه العمال والكتاب في صناعة الحساب وهـو يحتوي على سبعة فصول سماها منازل . وتبحث المنزلة الأولى في النسبة والمنزلة الثانيه في الضرب والقسمة والمنزلة الثالثة في أعمال المساحات والمنزلة الرابعة في أعمال

---

(١) ابن النديم . — الفهرست ص ٣٩٦ .

(٢) ابن خلكان . — وفيات الأعيان م ٤ ص ٢٥٣ .

(٣) القفطي . — أخبار العلماء ص ١٨٩ .

(٤) ابن النديم . — الفهرست . ص ٣٩٤ - ٣٩٧ . البيهقي . تتمة صوان الحكمة ص ٧٦

(٥) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧١ وحققه الدكتور أحمد سليم سعيدان .

الخراج والمنزلة الخامسة في أعمـــال المقاسمات والمنزلة السادسة في الصروف والمنزلة السابعة في معاملات التجار . وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية [1] بخط عبد الملك بن أحمد البيلقاني فرّغ منها في يوم الجمعة ثالث ذي الحجة . كما توجد نسخة أخرى في مكتبة الرامفورية تحت رقم ٦٤ الموسيقى [2] .

٢ - كتاب المجسطي : - جاء في أول المخطوط بعد البسملة العلوم تشرف أما من قبل شرف معلوماتها كالعلم بالباري ذكره وعلم العقل والفن . وآخره الفصل السابع من النوع السادس مركز العلم كان أبعد من العالم وقد بينا اذن أبعد بعده من العالم .

ذكر بروكلمان ج ١ ص ٢٢٣ بأن توجـد نسخة مصورة منه في مكتبة باريس تحت رقم ٢٩٤ وتوجد في دار الكتب المصرية نسخة مصورة عليها تحت رقـم ٧٣ هيئة ، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة مصورة تحت رقم ١٧٧ فلك [3] .

٣ - زيج البوزجاني / وهو كتاب مهم في علم الفلك وسماه الحـــاج خليفة (الزيج الشامل) وقد وقع في خلط بين زيج البوزجاني وبين الزيج الشامل الأستاذ الابهري . وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة السليمانية في اسطنبول تحت رقم / ١٤٧٩ [4] .

٤ - كتاب فيما يحتاج اليه الصناع من أعمال للهندسة مجرد من العلل والبراهين - خدم به الأمير بهاء الدولة البويهي . وكان قريباً لديه كثير الحظوة

---

(١) فهرس المخطوطات ج ٥ ص / ١٨٥

(٢) تذكرة النوادر / ص ١٥٢

(٣) فهرس المخطوطات المصورة / ج ٣ ص ٩٣

(٤) مجلة سومر ، مجلد الرابع والعشرون ص ١٤٩

عنده وقد توخى في كتابته ليكون دليلا يسهل على الصناع أمر المسح .وقد فرد فيه فصلا لتحريف المصطلحات كالمسطرة والبركار والكونيا . توجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة أيا صوفيا باسطنبول تحت رقم ٢٧٥٣ . وقد كتب هذه النسخة لمكتبة جلال الدولة ، الع بلك بهادر [١] .

٥ – كتاب تفسير الخوارزمي في الجبر والمقابلة .

٦ – كتاب تفسير ديوفنطس في الجبر . وقد ذكره ابن النديم [٢] في كتاب الفهرست باسم صناعة الجبر .

٧ – كتاب تفسير كتاب أبرخس في الجبر والمقابلة .

٨ – كتاب استخراج ضلع المكعب .

٩ – كتاب معرفة الدائرة وذكر (فى اقامة البرهان على الدائرة من الفلك من وقت النهار وارتفاع نصف النهار وارتفاع الوقت) وتوجد نسخة منه في مكتبة بانكي مور كتب سنة ٦٣١ هـ تحت رقم ٢٥١٩ [٣] .

١٠ – كتاب الكامل ، وهو كتاب جليل يبحث في علم الفلك .

١١ – كتاب استخراج الأوتار .

١٢ – كتاب في الهندسة .

١٣ – كتاب في الجدول السيني .

٤ – ابن العميد :

وقد اشتهر في علوم الهندسة اضافة إلى العلوم الأخرى وكان لا يجاريه أحد

---

(١) مجلة سومر ، مجلد الرابع والعشرون ص ١٥٠ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٤ .

(٣) تذكرة النوادر ص ١٥٣ .

في هذا العلم وقد ذكر مسكويه [1] انه (كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى علوم الهندسة والطبيعة وجر الثقل ومعرفة مراكز الاثقال واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة على الفعل وعمل الفعل وعمل الآلات الغريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون) .

٥ – علي ابن أحمد العمراني :

من أهل الموصل وكان عالماً بالحساب والهندسة وكان عالماً بالحساب والهندسة وكان فاضلاً جماعاً للكتب يقصده الناس في المواضيع البعيدة للقراءة عليه . توفي سنة ٣٤٤ هـ وقد وضع كتابه الشهير شرح فيه كتاب الجبر والمقابلة لأبي كامل [2] شجاع بن مسلم الحاسب المصري وكتاب الاختيارات وعدة كتب في النجوم وما يتعلق بها .

٦ – الحسين بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي المهندس :

اشتهر بمعرفته التامة في علوم الهندسة والفلك وهو من أهل قرطبة خرج من الأندلس ٤٤٢ هـ ولحق بمصر ثم باليمن ثم جاء إلى بغداد . واتصل بالخليفة القائم العباسي فنال عنده حظوة كبيرة ودنيا عريضة ، وتوفي في اليمن بعد سفره من بغداد سنة ٤٥٢ هـ .

٧ – قشير بن لبان :

وهو أبو الحسن قشير بن لبان بن البشحري الجبلي وكان فارساً اشتغل في الرياضيات والفلك وأوجد شيئاً كثيراً في المثلثات . وكتب كتابه الشهير (الزيج الجامع البالغ) وكتب مقالة في علم التنجيم والحساب .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) بن النديم . الفهرست ص ٣٩٤ . القفطي . أخبار العلماء ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٣) الزيجة . جمع زيج .

٨ – أبو جعفر محمد بن الحسين :

وكان من مشاهير علماء الرياضيات كتب كتاباً موجزاً عن المثلثات ذات الجذور وايجاد الوسط المتناسب بين خطين بطريقة هندسية كما يسميه العرب بالهندسة الثابتة .

٩ – أبو الجود محمد بن الليث :

وكان من علماء الرياضيات اشتغل في حل مسائل البيروني بطريقة المقاطع المخروطية ورسم المسبع المنتظم وصنف المعادلات .

١٠ – أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي :

نشأ في بغداد في عهد فخر الملك وكان من أعاظم رياضي وألف كتابه (الكافي) في سنتي (٤٠١ هـ – ٤٠٧ هـ) وكان هذا أول كتاب له أهداه إلى الوزير البويهي فخر الملك [١] . وقد فضل الكرخي فيه الطريقة اليونانية على الطريقة الهندية ، ونجد فيه مبادىء الحساب الأولية المعروفة في ذلك العهد وبعض قوانين وطرق حسابية مبتكرة لتسهيل بعض العمليات كالضرب ومن أبحاثه في هذا الكتاب (ضرب بالتربيع والجمع) [٢] . وشرح أيضاً في هذا الكتاب مساحات بعض السطوح وكيفية إيجاد الجذر التقريبي للاعداد التي لا يمكن استخراج جذرها التربيعي بصورة مضبوطة . وترجم العالم الألماني

---

(١) أبو غالب محمد بن علي بن خلف الملقب بفخر الملك وزر لبهاء الدولة البويهي ثم وزر لسلطان الدولة بعد وفاة بهاء الدولة .

(٢) أي أنه ايجاد حاصل ضرب عددين باستعمال المعادلة الجبرية التالية :

$$(\text{ب} + \text{جـ})\ (\text{ب} + \text{د}) = \text{ب}^{٢} + \text{ب}\ (\text{جـ} + \text{د}) + \text{جـ}\ \text{د}$$

وضرب بالتربيع . $\text{ب}\ \text{جـ} = \left(\frac{\text{ب} + \text{جـ}}{٢}\right)^{٢} + \left(\frac{\text{ب} - \text{جـ}}{٢}\right)^{٢}$.

الدوميلي – العلم عند العرب . ص ٢٢٠ .

(هوك هايم / Hock Hiem)هذا الكتاب إلى اللغة الالمانية سنة ١٨٨٠م وترجمة المستشرق الفرنسي (وبيك / Wopek) سنة ١٨٥٣ م . وبعد هذا الكتاب انضج الكتب التي وصفها العرب في الرياضيات وكان مفخرة التراث العربي لما وصل اليه من الرقي الفكري .

(٢) وألف كتابه الثاني (كتاب الفخري) في الجبر والمقابلة وأهداه إلى إلى الوزير أبو غالب بن محمد علي بن خلف فخر الملك[١] كما ألف كتابه الثالث سماه .

(٣) (البديع في الحساب) وهو أحسن من كتاب الفخري في الجبر والمقابلة ونجد في كتب هذا العالم لأول مرة عند العرب حلولا للمعادلات غير المحدودة كبقية المحاولات على أساس الطرق التي اتبعها ديوفنطس .

(٤) كتاب أنباط الحياة الخفية .

أوله : (الحمد لله على آلائه ... لما دخلت العراق ورأيت أهلها من الصغار والكبار يحبون العلم ويعظمون قدره ويكرمون أهله صنفت في كل مرده تصنيفاً في الحساب والهندسة .

وآخره : فهذا ما اختصرته في معنى أنباط الحياة وبمعرفته يعرف ما أهملته من تطويل الشرح واكثار البيان ....) نسخه منه كتبت سنة ٦٣٢ بالموصل في ١٨ ورقة وأخرى مصورة عليها في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية تحت رقم ٢٠ رياضيات[٢] .

١١ ـ الخازن : أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني المعروف بالخازن :

نشأ في مرة أشهر مـــدن خراسان وله في سماء البحث والابتكار . اشتهر

---

(١) الصابي ـ أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . ص ٢٩ .

(٢) بروكلمان . ـ ملحق ـ ١ ٣٨٩٠ .

بنحوثه في الرياضيات وخاصة الميكانيكا والطبيعة والفلك وقد عمل زيجاً فلكياً سماه (الزيج المعتبر السنجاري) نسبة إلى السلطان سنجر وقد أرسل اليه ألف دينار لتصفية هذا الكتاب على يد الأمير شافع الطبيب فردها اليه وقال : ـ لا أحتاج إلى المال وبقي لي عشرة دنانير ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير [1] .

زيج الصفائح : ـ خدم بارصاده وزيجه هذا أبا الفضل بن العميد وزير الدولة البويهية وقال القفطي (انه أجل منصف في هذا النوع) .

وفيه حسب مواقع النجوم لسنة ١١١٥ – ١١١٦ أتثم وجمع أرصاد أخرى غاية في الدقة ظلت مرجعاً للفلكيين قروناً طويلة واحتوى هذا الزيج أيضاً على جداول السطوح المائلة والصاعـدة ومعادلات لايجاد الزمن في خطوط العرض لمدينة (مرو) [2] وضع كتب عديدة في هذه العلوم ومن أشهر كتبه (ميزان الحكمة) وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أجنبية وهو الأول من نوعـه بين الكتب العلمية القديمة القيمة ولا سيما في (الايرستانيكا) وقد وصف سارتون هذا الكتاب بقوله انه أجن الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات وأروع ما انتجه القريحة في القرون الوسطى .

كما اعترف (بلتن) في أكاديمية العلوم الامريكية بما لهـذا الكتاب من شأن كبير في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر عند العرب [3] وكان الأستاذ (ويدمان) أكثر العلماء الغربيين أعتناء بهذا الكتاب فقد ترجم فصولا عـدة منه وشرحها وعلق عليها .

لقد سبق الخازن (تورشيللي) في الاشارة إلى مادة الهواء ووزنه وبين أن للهواء وزناً وقوة ورافعة كالسوائل . وان وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي .

---

(١) البيهقي . ـ تتمة صوان الحكمة . ص ١٦٦ .

(٢) طوقان . العلوم عند العرب ص ٢٠٠ .

(٣) عبد الحليم منتصر . تاريخ العلم ودور العلماء العرب ص ١٦٤ .

وان مقدار ما ينقصه من الوزن يثبت كثافـــة الهواء . وبيّن أن قاعدة (أرخميدس) لا تسري على السوائل فقط وإنما تسري على الغازات أيضاً وقـد ساعدت هـذه الدراسة العلماء الأوربيين على اختراع البارومتر ومفرغات الهواء والمضخات وغيرها . وبهذا يكون الخازن قد سبق تورشيللي وباسكال ، وبريل وغيرهم ، وبحث الخازن كيفية إيجاد الكثافة للاجسام الصلبة والسائل معتمداً بذلك على كثافة البيروني ، واخترع ميزانـــاً لوزن الأجسام في الهواء والماء له خمس كفات تتحرك احداها على ذراع مدرج وقـــد قدّر الكثافة لكثير من العناصر والمركبات لدرجة كبيرة من الدقة وبحث الخازن في الجاذبية حيث قال بقوة جاذبية جميع جزئيات الأجسام وأوضح أن الأجسام تتجه في سقوطها إلى الأرض وذلك ناتج عن قوة تجذب هذه الأجسام في اتجاه مركز الأرض .

وقد تحدث الخازن عن مراكز الاثقال وشرح بعض الآلات وكيفية الانتفاع بها وتكلم عن الأنابيب الشعرية وقد وصف عدداً من الآلات الفلكية في كتابه « كتاب الآلات العجيبة الرصدية »[1] .

١٢ – أبو القاسم علي بن أحمد الانطاكي :

ويلقب بالمجبّى ، من أهل انطاكية واستوطن بغداد وظل حتى وفاته في ١٣ ذي الحجه سنة ٣٧٦ هـ وكان من أصحاب عضد الدولة البويهي وقـــد نال حظوه كبيره عند هذ الأمير . اشتهر بعلم العدد والهندسة والرياضيات .

ألـّف هذا العالم عدداً من الكتب الهامة في الرياضيات مثل [٢] :

١ – كتاب التخت الكبير في الحساب الهندي .

كتاب تفسير الارثماطيقي .

٢ – كتاب الحساب على التخت بلا محو .

---

(١) الديملي : العلم عند العرب ص ٢١٧ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

كتاب استخراج التراجم

٣ – كتاب في المكعبات .

كتاب الموازين العددية . وهو يبحث في الموازين التي تعمل لتحقيق صحة أعمال الحساب .

٤ – كتاب تفسير اقليدس .

كتاب الحساب بلا تخت بل باليد . يبحث في نوع من الحساب الهوائي المسمى بالعقود .

وشارك في علم الأوائل وله في ذلك كتب وتصانيف كثيرة وقد وصفه القفطي [1] بأنه كان فصيح اللسان عذب البيان إذا سئل ابان واتي بالمعاني الحسان . هذا إلى توقد ذهن وحضور بديهه مما جعل الحكام والرؤساء يجلونه ويكثرون من دعواتهم إياه إلى مجالسهم الخاصة .

١٣ – ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصابي أبو اسحاق صاحب الرسالة :

نشأ إبراهيم في بغداد وتأدب بها وكان له اليد الطولى في علم الرياضيات وخاصة الهندسة والهيئه ، ولما عزم شرف الدولة مع عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد واعتمد في ذلك على ويجن بن رستم القوهي كان من جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن إبراهيم بن هلال ، وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصوره الرصد وأدرك موضع الشمس من نزولها في الأبراج . وقد ألف في الرياضيات عدة كتب وقد ذكر القفطي بأنه شاهد إحدى كتب إبراهيم بخطه في المثلثات ، كما وضع عدة رسائل في أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا

(١) القفطي : أخبار الحكماء ص ١٥٧ .

النوع . هذا وقد خدم الامراء البويهيين في العراق فترة طويلة [1] حتى وفاته سنة ٣٨٤ هـ .

وقد تولى أبو اسحاق ديوان الانشاء في بغداد عن الخليفة وعز الدولة في وقت واحد . ثم تقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ .

١٤ – القاضي أبو الحسن النسوي : وهو أبو الحسن علي بن أحمد النسوي .

نبغ في العلوم الرياضية والفلكية والتنجيم وكان ذا موهبة وملكة قوية ورغبة في تتبع آرائها وميل شديد إلى الأخذ بقواعدها المهمة بصورة لا تعرف الكلل عاش في بغداد ردحاً طويلاً من الزمن وحظى باحترام علمائها وقد أثنى عليه البيهقي ووصفه بأنه « الأستاذ الحكيم المحقق » وأضاف قائلا كان من حكماء الري وله الزيج الذي يسمى (الزيج الفاخر) وكان حكيماً ومهندساً ذا أخلاق مرضية ، وقد قرب عمره من مائة سنة ، وقواه سليمة إلا أن الضعف منعه عن المشي في الأسواق فلزم بيته ... ومن مؤلفاته :

١ – المقنع في الحساب الهندي باللغة الفارسية : – كتبه لأمير الري مجد الدولة أبي طالب رستم الذي ولي امارة الري بعد وفاة والده فخر الدولة بن ركن الدولة في شعبان سنة ٣٨٧ هـ – ٩٨٧ م .

٢ – المقنع في الحساب الهندي : – كتبه في اللغة العربية بطلب من (مشرف الدولة) يوم كان أميراً على العراق على غرار كتابه (المقنع الفارسي) وتوجد نسخة منه في مكتبة (رصد قنديللي) في اسطنبول كما توجد نسخة أخرى منه في خزانة ليدن برقم ٥٥٦ .

٣ – البلاغ : – وهو شرح كتاب أقليدس (الأصول في العدد والهندسة) .
٤ – التجريد في الهندسة : – وهو كتاب ثمين جاء فيه أن القدر الذي

---

(١) القفطي : أخبار العلماء ص ٥٤ .
(٢) فهرست المخطوطات المصورة : ج ٣ ص ٢٢ – ٢٣ .

يكفي من علم الهندسة هو أن يعلم علم التنجيم بالبرهان الهندي الذي ذكره بطليموس في المجسطي فرجع بالتحليل إلى المجسطي ومقدم منه الأشكال المعروفة بالقطاع واستخرج من اقليدس وسائر الكتب أشكالاً لا يحتاج اليها في التعاليم وجمعها فيه بلفظ أسهل . وبراهين أخف وذكر أن من عرفها حق المعرفة وقف على برهان علم المساحة وأصول سائر الصناعات التي لا بد للانسان منها . ويكون أيضاً مدخلا في علم الهندسة ثم من أراد أن يصير متبحراً فيه فسبيله أن يتعلم بعده (كتاب اقليدس) وسائر الكتب فيه . وقد جعل النسوى كتابه هذا على سبع مقالات .

جاء في قوله (... وصنفها سبع مقالات موجزة ...)

حيث جاء في آخره يقول (ويختم المقالة السابعة بهذا الشكل ، والكتاب بهذه المقالة لأن هذا القدر رأينا كافياً لمقصودنا) .

وأهداه إلى أبي الحسن المطهر بن السيد ابن القاسم وزير عضد الدولة البويهي أيام وزارته وقد ذكر في مقدمة كتابه (أرجو أن يكون محموداً كافياً بدولة الأجل الامام المرتضى ذي الفخرين أبي الحسن المطهر بن السيد الزكي الحسين أبي القاسم أدام الله دولته)

(توجد نسخة منه في سالا رجنج بحيدر أباد تحت رقم ٣١٤٢ ونسخة بقلم نسخ جيد كتبها لنفسه أحمد بن محمد بن سنان الرشنسي سنة ٧٢٣ هـ ومنها نسخة مصورة عليها في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية رقم ٢٨ رياضيات) .

٥ – كتاب تفسير كتاب المأخوذات لأرشميدس : – وقد نقل هذا الكتاب ثابت بن قره إلى اللغة العربية [١] وذكره ابن النديم بـ (تحرير كتاب مأخوذات أرشميدس) وذكره بروكلمان ملحق ١ . ٣٨٤/٣٩٠ .

وتوجد نسخة منه كتبها نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي المتوفي

(١) زامباور – الأسرات الحاكمة جـ ٢ ص ٣٢٤ .

سنة ٦٧٢ هـ بخط جميل وتوجد نسخة أخرى في أيا صوفيا تحت رقم ٢٧٦٠ – من ٧٦١ تحت كتابته سنة ٨٤٥ هـ وتوجد نسخة منه في خزانة كلية بنجاب كما توجد نسخة منه ضمن مجموعة في مكتبة جامعة كولومبيا في نيويورك تحت رقم ١١ من المجموعة [١].

٦ – كتاب الزيج الفاخر : – ذكره القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء).

٧ – رسالة في المدخل إلى المنطق .

٨ – رسالة في معرفة التقويم والاسطرلاب : – منها نسخة في مكتبة جامعة كولومبيا برقم ٤٥ [٢].

٩ – مسألة لابن النسوي .

١٠ – جوامع أبي الحسن علي بن أحمد النسوي .

١١ – رسالة الاشباع في الشكل القطاع : – نسخة منها في مكتبة السلطان أحمد الثالث في سراي طوبقبو باسطنبول في مجموعة تحت رقم ٣٤٦٤ .

١٥ – أبو جعفر الخازن :

وهو أبو جعفر محمد بن حسين الخازن من رياضي القرن الرابع الهجري المشهورين ، توفي سنة ٤٠٠ هـ – ١٠١٠ م .

وله :

(١) زيج الصفائح : – خدم بارصاده وزيجه هذا أبا الفضل بن العميد وزير الدولة البويهية . وقد أثنى القفطي على هذا الكتاب بقوله (هو أجل مصنف في هذا النوع) . وتوجد من هذا المخطوط نسخة ناقصة تشمل على مسألتين من هذا الزيج في مكتبة ليدن تحت رقم ٩٩٢ .

---

(١) مجلة سومر ح ٢٢١ ص ١٦٤ .

(٢) فهرست المخطوطات العربية في دور الكتب الأمريكية ص ٢٨ .

(٢) شرح (المقالة العاشرة) من اقليدس : -

وتوجد نسخة منه مخطوطة في المهند سخانه البريه الهما يونيه باسطنبول [١] طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن في الهند .

(٣) كتاب المسائل العددية : - رسالة في الحساب .

(٤) شكل القطاع والمغني : - كتبه ينوب عن (شكل القطاع) ويثبت (الشكل المغني) من تلقاء نفسه .

---

(١) مجلة سومر : المجلد الرابع والعشرين ص ١٥٢ .

(٢) آثار باقية ص ١٦٥ .

خصائص وأهمية الحركات الجماهيرية في المشرق العربي قبيل ثورة الاتحاديين

تأليف : ل . ن . كتلوف
ترجمة : الدكتور هاشم صالح التكريتي
العراق

تميزت الانتفاضات الجماهيريـة في الولايات العربية من الدولـة العثمانيـة في النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر وبدايـة القرن العشرين بالتناقض • لقد كانت تنيجة لاستياء الشغيلة المتزايـد مـن تشديد الاستغلال الاقطاعي ومن سياسـة الحكومة العثمانية في مجـال الضرائب ومن ادخال الخدمـة العسكرية الالزاميـة وعدم كفاءة الجهاز الاداري وتفشي الرشوة فيه وعجز الامبراطورية الآخذة بالتفسخ عـن حماية هذه البلدان من توسع ونهب الاستعمار الاوروبي ، واقترن كـل ذلك في اذهان المزارعين ومربي الماشية بالظواهر الجديدة في الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية ، تلك الظواهر المرتبطة بانجذاب الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية الى نظام الاقتصاد الرأسمالي العالمي وبعملية نشوء العلاقات الرأسمالية مـع ما تتميز به هذه العمليـة من ألم • ان التدهور المادي لوضع جماهير الشغيلة الاقتصادي تلك الجماهير التي لم يستطع قسم منها ان يجد مكانا له في الظروف الجديـدة وتدهـور الوضع الاجتماعي لافراد القبائل والطوائف الدينية والنمو المتسارع في

هذا البحث هو ترجمة حرفيةللجزء الاخير من الفصل الرابع من كتاب للمستعرب السوفياتي المعروف ليف نيكولايفتش كتلوف صدر في ١٩٧٥ في موسكو بعنوان « نشوء حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر ــ ١٩٠٨) » •

جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لاهمية ظواهر غريبة عن المجتمع العربي التقليدي ، كل ذلك تظافر على تعزيز التطورات الراسخة حول « الزمن الغابر الخير » وحول امكانية التخلص من المصائب الجديدة عن طريق المحافظة على الاشكال السابقة من العلاقات الاجتماعية .

وعملت القوة الاستثنائية التي تتميز بها الروابط القبلية والدينية والطابع الابوي « الباترياركي » الذي تتميز به العلاقة بين المنتج المباشر والفئة المستغلة في القبائل والطوائف الدينية ، عملت بدورها على ترسيخ النزوع الى القديم ، الى التقاليد . فقد احتفظ زعماء القبائل والطوائف الدينية بتأثير لا ينازع على عقول وميول الجمهرة العادية من الافراد، فكانوا يتزعمون الانتفاضات الشعبية ويصوغون للاغلبية الساحقة من هذه الانتفاضات مباديءها الايدولوجية وشعاراتها السياسية .

وتبرز من بين الحركات الجماهيرية في الاقاليم العربية من الدولة العثمانية الانتفاضات التي قامت في جبل لبنان وعلى الاخص الانتفاضة الفلاحية في ١٨٥٩ ــ ١٨٦٠ . ففي مجرى نضال جبل لبنان تخلصت شعارات الحركة الفلاحية من تأثير الايدولوجية الاقطاعية ــ الاكليروكية واتخذت طابعا معاديا للاقطاع بشكل واضح . ومما له دلالة في هذا المجال ان الفلاحين انطلقوا لاثبات مطاليبهم من الموضوعات التي تضمنتها مراسيم التنظيمات التي نصت على المساواة امام القانون والمساواة الدينية . وقد تجسد ذلك عند التطبيق في مطالبة الفلاحين في « ان منزلة الشيخ يجب ان تتساوى مع منزلتنا [أي منزلة الفلاحين] في جميع المجالات دون استثناء » . [نقلا عن : ٣١ ، ص ٨٩ ــ ٩٠] *

---

* يشير الرقم الاول هنا وفي ما يقبل من الصفحات الى تسلسل المصدر الذي جرى الاستناد عليه في قائمة المصادر المثبتة في آخر البحث .
المترجم

وفي انشاء الجمهورية الفلاحيــة في كسروان • وحتى نهايــة خمسينات القرن التاسع عشر « بدأ سواد الناس يفهمون المعنى العملي لشعارات الحريــة والمساواة » [نقلا عــن : ٣١ ، ص ٩٢] • وأصبحت مطاليب الجماهير الفلاحيــة في لبنان تتمشى مع مصالح البرجوازيــة الناهضة في المدن •

ومع ذلك ظل المستوى الفكري للحركات الفلاحية واطئا جدا حتى في الفترة التي بلغ فيها النضال التحرري أعلى ذروة له ، فالفلاحون لم يستطيعوا التخلص من ضغط الايدولوجية الدينية القروسطية الاقطاعية من حيث الجوهر ، وكانوا يعانون من التأثير الكبير للفئات الاقطاعية ـــ الأكليركية ، وحتى بالنسبة للمشاركين في انتفاضة ١٨٥٩ ـــ ١٨٦٠ لـم تتعد ذهنيتهم مصالح الفلاحين الذين يشتركون معهم في الدين ، اذ لـم تطرح عمليـا قضية القيــام باعمال مشتركة مع الفلاحين الدروز وعموم المسلمين ، فالافكار القومية ــ الوطنية التي ظهرت خــلال الانتفاضات اللبنانيــة كانت اتجاهات تحمل طابعا انعزاليــا عربيا ــ مسيحيا أو على الاصح لبنانيا ــ مارونيــا • وفي آخر الامر جرى تحويل الانتفاضات المعادية للاقطاع التي قام بها الفلاحــون اللبنانيون الى نزاعات دينيــة أفضت الى مذبحة ١٨٦٠ •

لقد كانت الأسس الايديولوجيــة والشعارات السياسية لاغلبيــة الحركات الجماهيرية التي قامت في الولايات العربية من الامبراطوريــة العثمانية اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر حتى ثورة ١٩٠٨ ذات طابع تغلب عليه صفة المحافظة ، فعلى الرغم من ان مصالح الشغيلة تركت على هذه الحركات بصماتها لحد معين الا ان تلك الحركات ظلت ضمن اطار النضال من أجل المحافظة على العلاقات الاجتماعية الاقطاعيــة ــ الابوية فالشغيلة وخصوصا الفلاحون لم يكن بمقدورهم ان يتصوروا مجتمعا خاليا من السادة ولهذا فانهم كانوا يحاولون الحد من الاضطهاد فقط •

وكانت شعارات الغالبية العظمى من الانتفاضات الصغيرة شديدة الغموض ، حتى انه كثيرا ما انعكس فيها بشكل غاية في الوضوح ، ما كانت موجهة ضده • لقد لاحظ فريق المزهر آل فرعون ، وهو احد المتحدرين من عائلة شيوخ آل فتلة ، في معرض وصفه لتاريخ تطور الانتفاضات المعادية للاتراك التي قام بها عدد من القبائل العربية بأن شعار « (ان هذه الحكومة ما نريدها) » [١٨ ، ج ١ ، ص ٢٧] ظل لوقت طويل الشعار الوحيد للقبائل • ويذكر عند حديثه عن أسباب هذه الانتفاضات ان من بين اسبابها الأساسية الريبة التقليدية للسكان العرب في الفرات الاوسط من نشاط « الروم » * الذين كانوا يعتبرونهم قوة غريبة لا تحمل لهم الا اتاوات والتزامات واعباء جديدة [١٨ ، ج ١ ، ص ٣٠ ــ ٣١] • لقد ظل نمط الحياة العشائري التقليدي المثل الأعلى لهذه الانتفاضات التي لم تتعد مهماتها الدفاع عن مصالح طوائف محدودة ومنغلقة على نفسها •

غير ان المعارضة الايدولوجية الاوسع تمثلت في الاتجاهات الاصلاحية الجديدة في الدين الاسلامي التي ظهرت على شكل فرق دينية وطرق صوتية • ومن هنا يكون للتكوين الايدولوجي للحركة الرامية الى اعادة الدولة السعودية في أواسط شبه جزيرة العرب دلالة خاصة • فقائد هذه الحركة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود كان كأسلافه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعارض العقائد الاسلامية الرسمية التي يحمل لواءها السلطان ــ الخليفة العثماني بموضوعه « الاسلام الحقيقي النقي » المطهر من البدع بحسب التأويل الوهابي • ويذكر الباحثان العربيان حسن سليمان محمود وسيد محمد ابراهيم في معرض وصفهما للاتجاهات الفكرية لدى سكان شرق شبه الجزيرة العربية في فترة اعادة الدولة السعودية بأن هؤلاء السكان كانوا ، الى

* تسمية تتسم بشيء من الازدراء كانت القبائل العراقية ، تطلقها على الاتراك وعلى الاخص على موظفي الحكومة وكذلك على الاجانب عموما .

المنصور محمد في رسالة ارسلها في خريف ١٨٩١ الى مبعوث السلطان في اليمن بأنه لا يبغي اية فوائد دنيوية وانما الشيء الوحيد الذي يقلقه هو ازدراء الادارة التركية كلية لاحكام الاسلام . « اننا نرى ان الموظفين لا ينفذون تعاليم الله ولا يحرصون على ان لا تخرق محرماته ولا يحولون دون ارتكاب المعاصي ولا يفعلون ما أشار به كتاب الله وسنة رسوله . انهم يقومون تجاه الدين بما لا يسمح به الله ويرتكبون الآثام ويدفعون الناس لارتكابها .. لقد علت كلمة اليهود والنصارى وأصبح الأكراد والاحباش يحكمون خلق الله ، ولم تعد هناك رحمة لا للمؤمن ولا للذمي » [٨ ، ص ٥٥] . وبالنسبة للمؤمن الذي يتبع الامام الزيدي كان جمع الضرائب التي لم تنص عليها الشريعة الاسلامية كالتشريع العلماني الذي ادخلته السلطات التركية الى البلاد سواء بسواء ، أمر مخالف للشرع .

وفي الوقت الذي رفض فيه الامام المنصور محمد البدع وقواعد الحياة التركية باعتبارها مخالفة للاسلام ، كان يرى المثل الاعلى للمسلم الحقيقي في الشخص الذي يقدس احكام القرآن والسنة ويقيم الصلاة ويؤدي الصيام والحج ويؤتي الزكاة التي نصت عليها الشريعة . وفي الوقت الذي كان يدعو فيه الى الانتفاضة كان يهيب بشركائه في العقيدة ان يشنوا حربا مقدسة ضد « محرفي الاسلام » ومن أجل بعث « الايمان الصادق » [٨ ، ص ١٠ ، ١٣٥] . وقد تميزت بهذه الروح أيضا النداءات التي وجهها الى الناس الامام المتوكل يحيى الذي خلف المنصور محمد وكذلك وثائقه الاخرى [١٩ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨ ، ٢٧ ، ص ١٠٨ ـ ١١٠ ، ١١٧] .

ومما يثير الاهتمام في هذا المجال ان نلاحظ بان ايدولوجيي وقادة هذه الانتفاضات المعادية للاتراك والداعية للتقاليد لم يعترضوا من حيث المبدأ على السياسة الرجعية المتطرفة التي كانت تنتهجها طغمة القصر التي تحيط بالسلطان عبد الحميد الثاني ، فقد ظل السلطان ـ الخليفة يتمتع

جانب سعيهم الى اعادة « القيم الروحية الحقيقيـة » ، يساندون عبد العزيز بن سعود باعتباره المدافع عن هذه القيم [١٦ ، ص ١٠٤] • وابن سعود نفسه كان عندما يتوجه الى انصاره يطلق عليهم لقب « المؤمنون » (رجال التوحيد أي المسلمون الحقيقيون وانصار التوحيد الوحيدون كما كان الوهابيون يعتبرون أنفسهم) ، معارضا بهم ، بهذا الشكل جميع المرتدين والكفار أي حتى العرب غير الوهابيين [٣ ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ١٦ ، ص ١٠٤] • لقد كانت قوة التأثير الايدولوجي التي يتمتع بها زعماء الوهابيين احـد الاسباب المهمـة لانتصارهم في الصراع مع آل رشيد وحلفائهم الاتراك •

وعلى مثال اليمن يمكننا ان تتتبع بشكل أكثر تفصيلا الجوانب الأساسية لايدولوجية الحركات الجماهيرية المعادية للاتراك ولبرامجها السياسية • ان اهداف بعض القبائل اليمنية التي انتفضت ضد الاضطهاد التركي لم تتعد ، شأنها في ذلك شأن بقية المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية ، حدود المطالبة بالمحافظة على الامتيازات والحقوق التقليدية وبالغاء الفروض الجديدة (غير الشرعية) • ان هذه الانتفاضات كانت تجري تحت شعار الاخلاص لوصايا السلف ورفض كل ما هو غريب عن التقاليد العشائرية •وعلى نطاق اليمن ككل كان الأئمة الزيديون الذين وقفوا على رأس الحركة هم الذين صاغوا للانتفاضات المعادية للاتراك أسسها الايدولوجية وأهدافها السياسية •

لقد كانت الشعارات الايدولوجية للحركة على نطاق اليمن ككـل تنطلق في كليتها من الفقه الاسلامي الزيدي ، غير أنه ما من شك في أن هذا الشعار او ذاك كانت تمليه أيضا ضرورات الحياة الواقعية ، لكـن المصالح الدنيوية الملموسة كانت خلال ذلك تقام على أساس من أدلـة دينية عقائدية جامدة • لقد كان الائمة واشياعهم في مراسلاتهم الموظفين الاتراك وفي مواعظهم وأقوالهم وقصائدهم يؤكدون على الدوام على الاقتباس من القرآن وأعمال رجال الدين المسلمين • فقد أكد الامـام

من الناحية العملية في نظرهم بالحصانة وتركز كل انتقادهم على مستشاري السوء والولاة الرديئين والموظفين المرتشين [٢٧ ، ص ١٠١ ، ١١٣] • وفضلا عن ذلك كان الائمة الزيديون والزعماء السعوديون وقادة الحركات الأقل أهمية يؤكدون بشكل خاص اخلاصهم للسلطان العثماني [انظر : ٤ ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣] • ورغم ان ذلك يفسر قبل كل شيء باعتبارات سياسية تتعلق بالحالة الراهنة فان موقف عبد الحميد الثاني السياسي والايدولوجي كان دون ريب اكثر قربا وتفهما من أي موقف آخر بالنسبة للفئات الاقطاعية المتنفذة في الاقاليم العربية المتخلفة من الامبراطورية العثمانية • ومما له دلالة في هذا الشأن ان هناك عددا كبيرا من الشواهد يشير الى ان عزل عبد الحميد الثاني في ١٩٠٩ واصلاحات الاتحاديين (ذات الطابع البرجوازي) أثارت رد فعل سلبي لدى القادة العرب [٢٨ ، ص ٥٨ ، ٥ ، ص ٦٢ ، ١١ ج ١ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧ ص ١٣٣ ، ٣٧ ص ٣٣٧] •

ومهما كان أمر الاصطلاحات التي استعملت لتحديد الموقف في هذه القضية * فان الخوف من نشاط « الكفار » يعكس دون شك القلق المتزايد من تشديد التوسع الاستعماري ويشير الى عملية موضوعية هي تعميق التناقضات بين الاستعمار وشعوب الشرق المضطهدة • على ان موضوعة عدم التوافق بين الاسس الاجتماعية في كل من الشرق والغرب اتخذت كنقطة للانطلاق عند تحديد هذا الموقف ، حتى انه ، انطلاقا من وجهة النظر هذه ، جرى ، في الحساب النهائي ، تقييم جميع النشاطات التي كان للاوروبيين علاقة بها وكل العمليات التي جرت نتيجة لتوسع العلاقات الاقتصادية وغيرها مع اوروبا الرأسمالية • ثم انتقلت

---

* اتخذ الامام المنصور محمد مثلا نزاعات الحدود على الخط الفاصل بين الممتلكات الانجليزية والعثمانية حجة لاتهام الادارة العثمانية في انها اوصلت البلد والاسلام الى المذلة امام الكفار [٨ ، ٣٦٨ ــ ٣٦٩ ، انظر ايضا : ٩ ، ص ٨] •

القضية في المجال الايدولوجي الى مستوى العلاقات بين الاديان حيث كان يجري تأكيد على حقيقة ان نشاط الادارة العثمانية أدى الى التضحية بمصالح الاسلام .

لقد رفض الكثير لمجرد انه اعتبر من صنع الاجانب والمخالفين في الدين ولهذا فانه ، على حد زعمهم ، مخالف لمبادىء الاسلام ** . وهذا ما يفسر الى حد كبير معارضة ائمة اليمن الشديدة للتعليم والتشريع العلمانيين وعناصر الثقافة الاوروبية ومظاهر الحياة الاوروبية التي ادخلها الاتراك الى اليمن [٢٥ ، ص ٥٩] . وكان لهذا الموقف ، في وضع احتدم فيه النقاش الحاد في العالم الاسلامي وفي ممتلكات الامبراطورية العثمانية العربية بشكل خاص حول قضية العلاقات بين الشرق والغرب ، مدلوله المحدد تماما ، فأصبحت الاوساط الزيدية الحاكمة في اليمن تساند الجناح الاكثر يمينية من المحافظين انصار التقاليد . وقد اعتنقت أغلبية المجموعات الاقطاعية الاخرى التي كانت تقف على رأس الحركة المعادية للاتراك آنذاك آراء مشابهة ولو بشكل ربما أقل وضوحا وتحديدا .

ولم يكن هذا الموقف في قضية العلاقات مع الغرب الرأسمالي المتطور يعني ابدا بان الجماعات الاقطاعية كانت تستبعد امكانية التقارب مع الدول الاوروبية التي كانت تظهر اهتماما بهذه المنطقة ، وأكثر من ذلك فان الكثير من القادة الاقطاعيين انطلاقا منهم من مبدأ « عدو عدوي صديقي » كانوا يعتقدون بأنهم سيجدون في الدول الاوروبية حلفاء وحماة أقوياء . وهكذا فقد كانت توجد ، حتى بين الفئة العليا من الزيدية

** يجدر بنا ان نشير بهذا الصدد الى رد فعل الامام المنصور محمد على افتتاح دائرة للحجر الصحي في جزيرة قمران للحجاج القادمين الى مكة، فحجته الاساسية (والوحيدة) ضد هذه البدعة هي انها ادخلها «الكفار» وهدفهم الوحيد هو اعاقة المسلمين عن اداء احد أهم فروضهم المقدسة [٨ ، ص ١٦١] .

التي تميزت بموقف لا يلين في هذه القضية ، مجموعة ذات نفوذ ، وان كانت قد لاقت الاندحار فيما بعد ، تحاول ان ترسخ من وضعها بأن تضع نفسها تحت حماية بريطانيا※ [انظر : ٢٢] . كذلك أقام السلطان الوهابي عبد العزيز بن سعود علاقات وثيقة مع بريطانيا حيث عقد معها فيما بعد معاهدة تحالف جعلت نجد لفترة طويلة في وضع البلد التابع، هذا اضافة الى ان عددا من قادة جبل الدروز كانوا يعلقون آمالا خاصة على بريطانيا [٢١ ، ج ١ ، ص ١٩١] حيث تشير بعض الاخبار الى ان الممثلين الانجليز مثلا استغلوا الشيوخ الدروز في محاولة لاعاقة الاحتكارات الفرنسية عن تنفيذ عدد من المشاريع الاقتصادية [٣٦ ، ص ٤٠ ـ ٤١] .

وهكذا فان الموقف السلبي الذي اتخذته الاوساط الاقطاعية والدينية الحاكمة من كل ما هو جديد ، هذا الجديد الذي كان يقترن عندهم عادة بكل ما هو اوروبي والذي كان يقوض أسس سيادتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كانت تواكبه علاقات سياسية فعالة للغاية مع الدول الاستعمارية وخصوصا مع بريطانيا※※ . ومما له دلالة في هذا الشأن ان المبادرة كانت تأتي في كثير من الحالات من الزعماء الاقطاعيين والعشائريين في هذه المنطقة . ان جاذبية مثل هذا « الحلف » تفسر بالاساس باعتبارات تتعلق بالظرف السياسي . غير اننا لا يمكن ان نتجاهل ان بريطانيا التي كانت شبه جزيرة العرب تهمها آنذاك من

※ مما له دلالة بهذا الخصوص ان الامام يحيى حاول ايضا ان يقيم علاقات مع بريطانيا ، حيث كان يجري تجهيز المناطق الثائرة بالمؤن والسلاح عن طريق عدن : [٢٧ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥] . كذلك ساعد الامام بعض امراء اليمن الجنوبية الذين كانوا تحت حماية بريطانيا : [٥ ، ج ١ ، ص ٤٢١]

※※ قامت ايطاليا ، اضافة الى بريطانيا ، بنشاط كبير في شبه جزيرة العرب حيث اجرت اتصالات مكثفة مع محمد علي الادريسي الزعيم الديني المؤثر في عسير [انظر : ٢٢] .

وجهة النظر الاستراتيجيـــة العسكرية بالدرجـة الاولى ، كانت تكتفي بالسيطرة غير المباشرة على منطقة نفوذها تاركة لشركائها الصغار الحريـة التامة في تصريف الشؤون الداخلية للمناطق الخاضعة لهم • فقد كان لهذا الاتجاه بالنسبة للزعماء الاقطاعيين افضليات واضحة بالمقارنة مـع السياسة المركزية التي كانت تتبعها الحكومـة العثمانيـة ذلك انه كان يمكنهم ، مع وجود حماتهم الاستعماريين ، من ترسيخ مواقعهم الماديـة والاجتماعية والسياسية • وقد اصبح ذلك نقطة الأنطلاق للتحالف الذي تم فيما بعد بين الاستعمار والرجعية الاقطاعية ذلك التحالف الموجه ضد قوى التحرر الوطني والتقدم •

لقد كانت الانتفاضات الجماهيرية في الاقاليم المتأخرة الواقعة في اطراف الامبراطورية العثمانية منقطعة عن الحركة الاجتماعية في الاقطار العربية الاخرى الاكثر تطورا ، فلم يكن للاتصالات الفردية بين قادة هذه الانتفاضات والشخصيات الاجتماعية في الولايات العربية (تبادل القصائد والرسائل بين الشاعر العراقي جعفر الحلي والامام المنصور محمد مثلا [انظر : ٨ ، ص ١٧٣ ــ ١٧٦ ؛ ١٩ ، ط ٢ ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ــ ١ ــ آ ، ص ١٩]) أي اهمية تذكر •

لقد كانت مفاهيم : « الشعـــب العربي » و « الامــة العربية » و « العرب » مثل مفهوم الوحدة العربية التي كان لها مصالح ومهمات خاصة ، بعيدة عن ايدولوجيي هذه الانتفاضات • فالامام المنصور محمد مثلا كان في مواعظه يدعو لخير « الامة المحمدية » والى تخليصها من الاذى ولا يخص اليمانيين بوجـه خاص او العرب بوجـه عام [٨ ، ص ٥٩] •

ويمكننا ان نحكم على نظرة الامام يحيى الى هذه المسألة مـن موقفه من فكرة التوقيع على معاهدة تحالف بين الحكام العرب المستقلين وهي المعاهدة التي قدم مشروعها في ١٩٢١ أمين الريحاني ، فقد وافـق الامام يحيى على توقيع المعاهدة ولكنه حذف منها العبارة التي تشير الى

البعي الم شعث العرب واستبدلها بفقرة حول لم شعث المسلمين [٥ ، ج ١ ، ص ٢١٩] • صحيح انه ليس من النادر ان يعارض الاعاجم بالعرب في وثائق الحركة اليمنية ولكن ذلك كان يعكس ، دون شك ، التقليد القرآني بالدرجة الاولى وليس تأثير القومية العربية الآخذ بالتطور •

وأكثر من ذلك فانه على الرغم من ان الائمة اليمانيين كانوا في مراسلاتهم مع السلطات التركية يتحدثون باسم سكان اليمن عموما (باعتبارهم خلفا للائمة الذين حكموا البلد بشكل مستقل) ، الا انهم كانوا يضعون مصالح الطائفة الزيدية في المقام الاول [١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٧ ، ٨ ، ص ٦٥] كذلك كان السلطان السعودي يتحدث باسم الطائفة الوهابية والزعماء العشائريون باسم قبائلهم •

وعلى العموم احتفظت انتفاضات العرب الجماهيرية ضد الاضطهاد التركي في هذه الفترة بالصفات التي تميز العصر الاقطاعي ، حيث ان برامج العودة الى اشكال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الباترياركية التقليدية القديمة وتنقيتها من البدع التي ادخلتها السيطرة التركية وعززها تشديد المركزية والخطوات الاولى على طريق تطور الرأسمالية ، لم تكن من حيث الجوهر الا برامج المحافظة على الاشكال الاكثر بدائية للاستغلال الاقطاعي • لقد وجه القادة الذين تزعموا الحركة النضال من أجل اعادة « العصر القديم الخير » باتجاه الكفاح من أجل عودة امتيازات رؤساء القبائل العربية والطوائف الدينية ، تلك الامتيازات التي انتقصت منها السلطات التركية •

وفي المناطق التي كانت تثور فيها قبائل وعشائر منفردة حيث كان يقف على رأس الانتفاضات شيوخ متحدرون من اسر بارزة ، كانت تجري المطالبة بالالتزام بالتقاليد العشائرية ـ القبلية بما في ذلك مبدأ ملكية القبيلة الجماعية للارض واعفاء القبائل من دفع الضرائب الحكومية التي

كانت هذه القبائل تعتبرها ضرائبا غير شرعية • وتتيجة لعدد من الانتفاضات الناجحة التي قامت بها قبائل الفرات الاوسط ودروز جبل لبنان تضررت الفئات الاجتماعية العليا في هذه المناطق واصابتها خسائر ملحوظة • فوثائق ملكية الارض التي حصل عليها الاشخاص الذين ينتمون الى هذه الفئات بموجب قانون ١٨٥٨ تحولت الى وهم ، كما اضطر بعض الشيوخ الى ترك المناطق التي تقطنها قبائلهم وانتقلت اراضيهم الى افراد قبائلهم • ولكن ذلك لم يكن الا تراجعا موقتا فالجماعة الحاكمة الجديدة بعد ان استولت على المراكز القيادية في قبائلهم تنيجة الانتفاضة أخذت ، كأسلافها ، تركز في ايديها ممتلكات واسعة من الارض • وتقدم لنا سيرة زعيم اتحاد قبائل المنتفك سعدون باشا الذي وصل الى الزعامة تنيجة لاحدى هذه الانتفاضات باعتباره نصيرا للتقاليد القبلية مثلا واضحا على ذلك ، اذ لم تمض بضعة سنوات الا واصبح سعدون باشا هذا واقربائه من كبار ملاك الارض [٢٣ ، ص ٥٥٥ ــ ٥٥٦] •

وفضلا عن ذلك فقد جرى تعويض الخسائر المادية وبربح زائد بمكاسب سياسية حصلت عليها الفئات المتنفذة في القبائل • وقد تجسد ذلك في احيان كثيرة في اعتراف ولاة السلطان رسميا بحقوق خاصة للفئات المتنفذة من القبائل والطوائف في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت في السابق من اختصاص السلطة الحكومية •

وعلى الرغم من ان ممارسة الحكم بواسطة الشيوخ قد الغيت رسميا منذ أواسط القرن التاسع عشر فان الادارة التركية • في الكثير من مناطق سكن القبائل لم تكن تتمتع الا بالاعتراف الصوري فحسب ، حيث ان حكم القبائل الناطقة في العراق الاوسط وفي شرق الاردن والحجاز وعدد من المناطق الاخرى كان يتحقق في واقع الامر بواسطة زعماء هذه القبائل ،وقد اتخذ ذلك في عدد من الحالات شكله الرسمي عن طريق تعيين

الشيوخ كقائمقامين أو في مناصب ادارية اخرى •

لقد أدت سياسة الحكومة العثمانية التي كانت تمنح الفئات الاجتماعية العليا في العشائر والطوائف الدينية حقوقا ادارية وسياسية محددة وبشروط معينة ، الى نتائج خطيرة جدا • ففي وضع كانت تجري فيه عملية تحلل طبقي وتحلل في الملكية متسارعة في داخل القبائل والطوائف ، كانت هذه الحقوق تساعد في الحساب النهائي على ترسيخ الوضع الخاص الذي تتمتع به الفئات الاجتماعية العليا وسيادتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الجمهرة العادية من الافراد • وعلى الرغم من ان التنازلات التي قامت بها الادارة التركية في هذا المجال كانت نتيجة للانتفاضات الجماهيرية فانها كونت وضعا ملائما لتقوية العلاقات بين الادارة التركية والفئات المتنفذة في القبائل والطوائف •

وبعد الاطاحة بنظام آل رشيد الموالي للاتراك اعيد في نجد برئاسة السلطان عبد العزيز نظام الدولة الوهابي الذي كان في خطه الاجتماعي مشابها لنظام آل رشيد •

ولم يكن من النادر خلال الانتفاضات المعادية للاتراك ان تظهر في معسكر خصوم الدولة العثمانية تناقضات حادة بين الجماهير الكادحة والقيادة الاقطاعية ودليل ذلك ظهور اشخاص يدافعون عن الفلاحين بشكل منفرد • فقد ظهر في بداية القرن العشرين في منطقة عفك (في الفرات الاوسط) قاطع طريق يتمتع بشهرة واسعة اسمه سليمان : « انه كان يسلب الاغنياء فقط اما الفقراء فكان سخيا معهم » [٢٤ ، ص ١٤٠] •

ومعروفة أيضا حقائق انتفاضات بعض القبائل ضد السياسة المركزية والضرائبية التي يمارسها سلطان نجد ابن سعود ، وكذلك الاستياء من اجراءات الشيخ مبارك [١٢ ، ص ١٢٧] •

ولكن التناقضات التي ظهرت بشكل أكثر وضوحا في سير

الانتفاضات المعادية للاتراك يمكن تتبعها على مثال اليمن • ففي المرحلة المبكرة من تطور الحركة التحررية كانت هذه الحركة تتميز بانتفاضات تقوم بها قبائل منفردة للدفاع عن حرياتها التقليدية ورغبة منها في الحفاظ على المؤسسات العشائرية ـ القبلية واعراف الحياة الاجتماعية القديمة او اعادتها • وكانت الانتفاضات تحقق في بعض الاحيان نجاحا محددا حيث اضطرت السلطات التركية في بعض المناطق وعلى الخصوص في منطقة السودة الواسعة الى التخلي عن محاولة انشاء مؤسسات ادارية تركية والى الغاء القائم منها والاعتراف بالاستقلال الذاتي الذي كانت القبائل تتمتع به [٧ ، ص ٦٠] •

وقد جابه هذا الاتجاه في تطور الحركة المعادية للاتراك في اليمن منذ البداية مقاومة ضارية من جانب الائمة الزيديين المتعاقبين ومن يلتف حولهم من المزارعين وارستقراطيي المدن والفئة العليا من الطائفة الزيدية • وفي الوقت الذي أصبحت هذه الفئات مركز توحيد تكتلت حوله قوى حركة القبائل التحررية المناهضة للاتراك ، كانت في ذات الوقت تشن هجوما حاسما على الحريات والنظم العشائرية ـ القبلية • وهكذا نجد ان حيزا كبيرا خصص في سيرة حياة الائمة الزيديين وغيرهم من ممثلي الفئة العليا من الطائفة الزيدية لنشاطهم في القضاء على الطاغوت واعادة قواعد الشريعة [٨ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤] ولعملهم في مجال اسكان القبائل • وفي الوقت نفسه فرضت جباية الضرائب والمبالغ التي تنص عليها الشريعة (الزكاة والبدنة وغيرها) [٦ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ١٧ ، ص ١٤٢] •

لقد كانت اجراءات الائمة هذه تجاه قبائل اليمن تمس مصالح الارستقراطية القبلية والجمهرة العادية من افراد القبائل على السواء • فالقبائل التي تحررت من دفع الضرائب للادارة التركية كانت مجبرة على ان تدفع المبالغ التي قننتها الشريعة الى الامام كذلك فقد شيوخ القبائل وضع الرؤساء غير المسؤولين امام احد •

وكانت عملية تقوية نفوذ الائمة على القبائل تجري عبر صراع حاد

غالبا ما كان يتحول الى صدام مسلح مكشوف • ففي اب ـ ايلول ١٨٩٥ قامت قوات الامام بعمليات تأديبية ضد قبائل منطقة الجبير التي ثارت ضد « الشريعة » ، وفي ربيع ١٩٠٠ وشتاء ١٩٠١ قامت بالعمل نفسه في مناطق بلاد هاجور والشرق وسودة شطب ، وفي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ اشتغلت انتفاضات القبائل ضد الامام في مناطق صعدة وصحار وبارات في منطقة حشد [٨ ، ص ١٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨٧] • ان جميع هذه الانتفاضات قادها زعماء عشائريون ذوو نفوذ كما انها اتخذت في عدد من الحالات طابعا فلاحيا صرفا • ومن بين هذه الانتفاضات يمكن ان نخص بالذكر انتفاضة « عامة الشعب والجهلة » (في منطقة بلاد حبابه) التي تزعمها في١٨٨٧ ـ ١٨٨٨ أحد افراد قبيلةبني الرميمففي الوقت الذي كان الثوار يواصلون فيه عملياتهم الحربية ضد القوات التركية رفضوا ان يعترفوا بسلطة الامام الهادي شرف الدين غير ان قوات الامام نكلت بهم بقسوة والقي قائدهم في السجن ومات فيه [٧ ، ص ٩٥ ـ ٩٦] •

ولكن الغلبة في الصراع بين الاتجاهين داخل الحركة التحررية كانت حتما من نصيب الاتجاه الذي يمثله الائمة ، فالى جانب مكانة الأئمة التي لا جدال فيها باعتبارهم الرؤساء الدينيون للطائفة الزيدية ، لم يكن في تلك الظروف بمقدور القبائل المتعادية ان تتكتل ضد العدو المشترك الا حول هؤلاء الائمة بالذات •

وتكون في سير النضال ضد القوات التركية بالتدريج جهاز اداري بدائي خاضع للامام فكان نواة لجهاز الدولة الذي تكون في اليمن المستقل فيما بعد * وأرسل الأئمة الى مناطق سكن القبائل ولاة مدنيون وقادة

---

* رغم ان جماعة الامام لم تطالب بانشاء دولة مستقلة عن الامبراطورية العثمانية في اليمن الا ان نشاطها الدعائي والعملي كان يشهد على الرغبة في الاستقلال . فشعراء الحاشية مثلا كانوا يعظمون الامام ويطلق عليه لقب « صاحب المسلمين » بل وحتى « امير المؤمنين » وهو

عسكريون كما كان هناك من الناحية العملية وحتى في المناطق التي تخضع لسيطرة الاتراك قضاة وحكماء تابعون للامام •

ولم تكن صلاحيات ممثلي الامام هؤلاء محددة بدقة فالقادة العسكريون كانوا يقومون بقيادة الفصائل التابعة للامام كما يقودون أيضا المحاربين من أفراد القبائل الذين يخضعون في الوقت نفسه لشيوخ قبائلهم • واستنادا الى معطيات متفرقة وردت في الاخبار الزيدية ، كانت الادارة المحلية في اغلبية المناطق بيد شيوخ القبائل • فالحكام المدنيون لم يكونوا يعينون الا في المناطق التي كان فيها نفوذ الوالي على درجة كافية من الرسوخ وغالبا ما كانت اختصاصات الوالي والقائد العسكري في مثل هذه المناطق بيد شخص واحد • اما وضع القضاة والحكماء فكان افتقارا للتحديد حيث كانت أهميتهم يحددها توازن القوى بين الامام وهذه القبيلة او تلك او هذا الزعيم القبلي او ذاك • ففي بعض القبائل كان القاضي يكتفي بمكانة متواضعة باعتباره وكيلا للامام تابعا لزعيم القبيلة في حين كان يقوم في حالات اخرى ببعض الوظائف الادارية الى جانب عمله القضائي منها على سبيل المثال جمع الضرائب التي تقرها الشريعة [٢ ، ص ٤٧ ، ٧٤ ، ٨ ، ص ٨ ، ٣١ ، ٣١٥ ، ٣٢١] •

لقد تكون ايضا جهاز حكم مركزي كما ان احد الوجهاء التابعين للامام المنصور محمد وهو شخص يتمتع بثقة خاصة ، كان يحمل لقب

اللقب الذي لم يكن يحمله الا العاهل المستقل ، كذلك قام الامام المنصور محمد بسك نقود خاصة به كما خطب له في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بالقرب من صنعاء في خريف ١٨٩١ في مسجد مدينة الروضة لمدة ثمانية أسابيع متواصلة ، واخيرا فان الائمة (وخصوصا المنصور محمد والمتوكل يحيى) كانوا في مراسلاتهم مع ممثلي الاتراك يؤكدون باصرار بأنهم الخلفاء الشرعيين لحكام اليمن المستقلين [٢٢ ، ص ١١٢ ، ٨ ، ص ٣٥ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٥] •

(الوزير الاكبر) كذلك كان هذا الامام يعين شخصيا بمنصب شيخ الاسلام تابع له وبعض الموظفين الآخرين الذين يسيرون عمل دوائر الحكم المركزي المختلفة • اما ادارة الخزينة (« بيت المال ») وهي المؤسسة التي تهيمن على جميع الموارد المالية والمواد الغذائية الواردة بشكل ضرائب وعلى السلاح الموجود في ترسانة الامام مباشرة [٧ ، ص ٣٧ ، ٨ ، ص ١٨١ ، ٣١١ ، ٣ ، ص ٤٤ ، ٧٧ ، ١٠٠] • لقد كان عمل هذا الجهاز في البداية منصبا في الاساس على تنظيم وتعبئة الحركة الثورية • غير انه ، بمقدار ما كانت الحركة المعادية للاتراك يضطرد نجاحها والامامة ترسخ مواقعها ، كانت تتقدم الى المقام الاول بشكل متزايد الوضوح الاجراءات الموجهة نحو تقوية مواقع الفئة الاقطاعية والدينية العليا للطائفة الزيدية •

ان مأساة جميع الانتفاضات الجماهيرية الكبيرة في الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، هذه الانتفاضات التي كان أساسها مقاومة الشغيلة لسياسة الحكومة القائمة على النهب ولنظام الجور الاجتماعي والسياسي ، كانت تكمن في ان قيادتها وقعت في ايدي الاقطاعيين والزعماء العشائريين ورؤساء الطوائف الدينية المحليين • وقد استطاعت هذه الجماعات باستغلالها للمزاج النفسي للفلاحين ونزوعهم الى « العصر الماضي الخير » .ان توجه الحركة أيضا ضد بعض الظواهر التقدمية موضوعيا وهي الظواهر المرتبطة بانجذاب تلك الولايات الى نظام الاقتصاد الرأسمالي * ، وبظور عناصر العلاقات الاجتماعية الرأسمالية

---

* لقد ادت انتفاضات القبائل الى تقويض العلاقات الاقتصادية وعرقلت التجارة واعاقت تطور الاقتصاد ، ففي خلال انتفاضة قبائل العراق وشمال غرب شبه الجزيرة العربية عرقل الثوار بشكل فعال عمل السكك الحديدية والمواصلات النهرية في نهر دجلة ولهذا فلم يكن من الغريب ان بعض هذه الانتفاضات أثارت رد فعل سلبي من جانب سكان المدن (وبالاخص من جانب التجار وملاك الارض الذين كانوا يدينون « الفوضى » [٢٠ ، ص ٣٧ ، ١٠ ج ٨ ، ص ٥٦ ، ١٥ ، ص ٣٥ ، ٢٦، ج٤ ، ص ١٠٠] •

(التشريع العلماني ، التعليم العلماني ، عناصر الثقافة المعاصرة) ، وقد ترسخت خلال سير الاغلبية الساحقة من الانتفاضات الجماهيرية بشكل كبير مواقع الجماعات الاقطاعية المحافظة التي اصبحت فيما بعد عائقا في طريق التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، كما أن تلك الجماعات الاقطاعية التي تزعمت الانتفاضات المعادية للاتراك كانت في نضالها من أجل السلطة قد توجهت في العديد من الحالات الى الدول الاستعمارية طلبا للمساعدة مضحية باستقلال ممتلكاتها ومسهلة استعبادها الكولينالي** .

ان نتائج المنطلقات المحافظة للحركات الجماهيرية في الولايات العربية من الامبراطورية العثمانية عبرت عن نفسها بشكل مباشر في نطاق

** لقد كان ولاة الامور الاقطاعيون في شبه جزيرة العرب الذين ارتقوا الى ذرى السلطة على اكتاف الحركة الجماهيرية التي صنعها الرحل والفلاحون وسكان المدن العاديون ، يتزعمون حتى بداية الحرب العالمية الاولى وبعدها أكثر الانظمة تأخرا ومحافظة في المشرق العربي : النظام المطلق في نجد (العربية السعودية) ، واليمن الاقطاعي ـ الثيوقراطي الذي فرضت عليه العزلة والكويت وقطر اللتين استعبدتهما الامبريالية الانجليزية .

ان التنازلات التي اضطرت الى القيام بها السلطة المركزية لصالح بعض القبائل (او الطوائف الدينية الصغيرة) ساعدت على ترسيخ الوضع الاجتماعي والسياسي للفئات الاجتماعية العليا التي تتزعم تلك القبائل او الطوائف ، حيث انتقل اليها بشكل رسمي او غير رسمي قسم من وظائف جهاز الدولة الاداري الامر الذي ادى الى الاسراع بعملية ابتعاد السلطة العامة عن جمهرة افراد القبلية العاديين . وفي فترة السيطرة التركية وكذلك بعد زوال هذه السيطرة (في الاقطار التي خضعت للانتداب الانجليزي والفرنسي وفي الدول المستقلة في شبه جزيرة العرب) كانت تجري عملية متواصلة هي عملية ارتباط جهاز الحكم الاداري في الدولة بعلية القبائل والطوائف الدينية التي ظلت محتفظة بوضعها الخاص . وقد تحولت هذه الفئة الاجتماعية في الحساب النهائي الى سند لاكثر الانظمة السياسية والاجتماعية رجعية .

ضيق بين جماعات عشائرية ودينية منغلقة وفي المناطق المتأخرة اجتماعيا وذلك على الرغم من انه ليس بالامكان طبعا تجاهل أهميتها بالنسبة لأوساط اوسع من تلك • لقد كان ذلك احدى نتائج الانتفاضات الشعبية المعادية للاتراك في الاقطار العربية وليس نتيجتها الوحيدة ، فعلى الرغم من كل جوانبها السلبية التي حتمها قدم العلاقات الاجتماعية الاستثنائي ونفوذ القيادة الاقطاعية فان هذه الانتفاضات اصبحت عاملا مهما ساعد على انتقال الحركة الاجتماعية العربية الى مستوى أعلى •

ولقد ظلت الحركات الجماهيرية مجرد انتفاضات لطوائف دينية وقبلية محدودة بهذه الدرجة او تلك كما اقتصرت ايدولوجيتها وبرنامجها السياسي بشكل عام على مصالح الطائفة المعنية التي كانت في واقع الامر تتعارض مع مصالح الطوائف الاخرى ✻ •

غير ان النزعة الانفصالية لبعض الجماعات أخذت مع سير النضال تضعف تدريجيا وذلك امر لم يكن محسوسا في الظاهر الا قليلا حيث ظهر

✻ ان تأثير النزعة الانفصالية والتناقضات الحادة بين مختلف مجموعات السكان العرب يلاحظ عمليا في جميع مناطق الانتفاضات الجماهيرية ، ولم تكن مذبحة ١٨٦٠ الا انعكاسا واضحا لذلك . كذلك لم يكن من النادر ان توجه القبائل الثائرة في اليمن سلاحها ضد الرعية (الرعية هي تسمية تطلق على السكان دافعي الضرائب في الامبراطورية العثمانية . وتعني ايضا في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية الفلاحين الذين لا يدخلون ضمن القبائل) المستقرة وسكان المدن . فقد تعرض للنهب من جانب القبائل المهاجمة سكان صنعاء (١٨٩١ ـ ١٨٩٢) وسكان الروضة وهي احدى ضواحي صنعاء (١٩٠٠) وسكان بعض المدن الاخرى ايضا . وقد كتب الفاسي عن الاساءات التي قامت بها القبائل التي حاصرت صنعاء قائلا: « لقد اصابت السكان كارثة رهيبة . انهم هربوا من صنعاء خوفا من الخطر فوقعوا في خطر آخر . لقد هربوا من الموت فوقعوا بين يديه » [١٩ ، ط ٢، ص ٢٧٥ ، انظر ايضا : ٨ ، ص ٣٢٤] . لقد اصبحت الصدامات الدموية بين القبائل كوارث يومية استغلتها السلطات العثمانية التي كانت تحرض القبائل بعضها ضد البعض الآخر .

بوجه خاص في حقيقة ان هذه الحركات كانت يؤثر بعضها على البعض الآخر وتحولت من الناحية الموضوعية الى حركات متحالفة ، فلم يكن من النادر خلال تطور الانتفاضات المعادية للاتراك ان توحد قبائل منفصلة او اتباع طوائف دينية مختلفة جهودها في النضال ضد العدو المشترك • ولقد ظهرت مثل هذه المساندة والمساعدة المتبادلتين بشكل فعال جدا في اليمن (حيث انضمت بعض قبائل الشافعيين الى انتفاضات القبائل الزيدية) وفي انتفاضات القبائل المشتركة في العراق وكذلك في التحالف الكويتي ـ السعودي •

ومما لا شك فيه فان هذا التعاون لم يكن قد تعدى بعد كونه نتيجة للصفقات السياسية الاعتيادية التي كانت تعقد بين القادة الاقطاعيين والعشائريين لا اكثر وغالبا ما كان يحمل طابعا وقتيا • غير انه في وضع كانت تجري فيه عملية مكثفة تؤدي الى تكوين اسواق قومية عامة في حدود اقليمية معينة وتتوثق فيه عرى الوحدة الاقتصادية وتنمو أهمية المصالح السياسية المشتركة للسكان الذين ينتمون الى قبائل ومذاهب دينية مختلفة فان مثل هذا التعاون كان يتضمن البواكير الاولى للتكتل القومي الناشيء • وفضلا عن ذلك فان النضال المشترك لمختلف مجموعات السكان العرب ضد النير التركي ساعد على ايقاظ الوعي القومي لجماهير الشعب الواسعة واعاقها فيما بعد على هضم اسس الايدولوجية القومية الوطنية • فبعد مضي عقدين أو ثلاثة من السنين اشتعلت في سوريا والعراق ثورات قومية تحررية قوية كان السبيل اليها قد مهدته الانتفاضات المحلية التي قامت بها قبائل وطوائف دينية منفردة • وهكذا ادت الحركات الجماهيرية التي قامت في فترة الظلم (أي فترة الحكم المطلق الذي مارسه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٨ ــ ١٩٠٨)) في شبه جزيرة العرب الى قيام دول مختلفة (نجد الوهابية ، الامامة الزيدية في جبال اليمن) أصبحت بعد الحرب العالمية الاولى مراكز لحركات توحيدية قوية •

لقد أثرت الحركات الجماهيرية التي قامت على حدود القرنين التاسع عشر والعشرين بشكل ملحوظ على تكون الايدولوجية القومية العربية الوطنية • ولقد جذب تطور هذه الحركات وعلى الاخص الانتفاضات المعادية للاتراك في اليمن واحداث نشوء الدولة السعودية في نجد انتباه عبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده ونجيب عازوري وكثير غيرهم من المفكرين والشخصيات العربية الاجتماعية والسياسية المعروفة في تلك الفترة • ومما له دلالة ان احدى افكار حركة التحرر القومي العربية ، تلك الافكار التي كانت آنذاك لا يزال يشوبها الغموض وهي فكرة اعادة الخلافة العربية قد ارتبطت في مؤلفات انصارها والداعين لها (الكواكبي ، عازوري ، لويس الصابونجي) بقيادة عرب ذوي نفوذهم اشراف مكة [٣١ ، ص ١٢٢ - ١٢٤] • ربما لم تكن الدوافع لهذه الآراء هي مكانة اشراف مكة باعتبارهم حماة المقدسات الاسلامية والماضي التاريخي فحسب وانما أيضا حقيقة انهم كانوا يتمتعون بنفوذ ملموس بين القبائل البدوية التي كان الكثير من ممثلي الفكر القومي ينظرون اليها على انها العنصر الأكثر ديناميكية في المجتمع العربي • ولم يكن ترشيح اشراف مكة كقادة محتملين لحركة التحرر العربي هو الاتجاه الوحيد في هذا الشأن ، فأعضاء المنتدى الادبي العربي في اسطنبول (الذي تأسس في ١٩٠٩) كانوا يحلمون بالحصول على الحرية بمساعدة امام اليمن يحيى والسلطان الوهابي عبد العزيز بن سعود [١ ، ص ٢٣١] ، في حين كان آخرون يعتقدون بأن حركة التحرر العربي يمكن ان يتزعمها عبد العزيز بن سعود وشيخ الكويت مبارك [١٤ ، ص ٥٦] •

وأخيرا فان انتفاضات الجماهير الشعبية ضد النظم السائدة في الدولة العثمانية ، تلك الانتفاضات التي كانت تجري تحت شعارات محافظة وبقيادة الاوساط الاقطاعية التي تنكر كل جديد كانت تنخر نظام عبد الحميد الثاني الرجعي • ان الحملات التأديبية غير المجدية ضد المناطق المتمردة كانت تقتطع الشبيبة التركية والعربية والكردية من أوطانها وعوائلها وتحكم عليها بالموت في حروب غريبة عنها • ولقد انتهت حملة ١٩٠٤ السيئة الصيت الى نجد باندحار الفيلق التأديبي التركي وموت

القسم الاغلب من جنوده وضباطه [١٠ ، ج ٨ ، ص ١٤٧ ــ ١٤٨] ، كما ان خسائر الجيش التركي بلغت في الحرب في اليمن على الاخص حجما ينذر بالكارثة ، حتى ان احمد فيضي باشا الحاكم التركي العام الذي لم يكن له مصلحة في المبالغة في هذه الخسائر ذكر في احدى رسائله الى الامام المنصور محمد بأن عدد من هلك في المقاطعات الخاضعة له بلغ ستة آلاف جندي [٨ ، ص ١٠٣] ، غير أن الخسائر كانت أكثر من ذلك بكثير حيث تؤكد المصادر غير الرسمية بأنه كان يموت في كل سنة من العسكريين الاتراك عشرة آلاف شخص [٣٨ ، ص ٦٥ ، ٣٣ ، ١٩٠٩، رقم ٢ ، ص ٩] . وعلى ذلك فان اليمن لم تحصل على اسم « مقبرة الاتراك » عبثا .

والحقيقة ان رصاص الثوار ليس هو الذي أفرغ صفوف الجيش التركي ذلك ان القوات التركية كانت تعاني على الدوام نقصا في المؤن والملابس نتيجة للنقص الدائم في الاموال وتفشي الاختلاس على نطاق واسع والفوضى التي كانت تكتنف جميع دوائر جهاز الدولة بما في ذلك المؤسسة العسكرية . ان سكان الاقاليم المركزية في الامبراطورية العثمانية الذين كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية في مناطق اليمن شبه الاستوائية أو في صحارى وسط شبه جزيرة العرب ومناطق الاهوار في العراق كانوا يعانون بشدة من قساوة الظروف المناخية التي لم يعتادوا عليها ، في حين ان الخدمات الطبية في الجيش التركي لم تكن مؤهلة لتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها : وهكذا فان خسائر القوات في الولايات العربية كان سببها الرئيس هو ارتفاع نسبة الوفيات نتيجة للاوبئة المعدية [٣٢ ، ص ٤٧ ، ٣٣ ، ١٩٠٢ ، رقم ٢ ، ص ٩] . فخلال الحملات التأديبية في سوريا وشمال العراق كانت اعداد كبيرة من الجنود تموت نتيجة للجوع والمرض [٢٩، ص ٧٤ ــ ٧٥] . ولم يكن بمقدور السلطات التركية تعويض الخسائر في القوات عن طريق تدريب وجبات جديدة من المجندين وارسالها الى الاقاليم النائية لهذا فانها كانت تحاول ان تحل القضية عن طريق تمديد خدمة الجنود والضباط في الجيش العامل .

لقد كانت الوحدات العسكرية التي ترسل في حملات تأديبية

وخصوصا الى شبه جزيرة العرب تفقد أهليتها للقتال بسرعة كبيرة [٢٧ ، ص ١١١] كما ان سياسة السلطات التركية القائمة على جمع الضرائب بمساعدة القوة المسلحة وفرض الغرامات الحربية على القبائل والقرى المتمردة كانت تساعد على توسع عمليات السلب والنهب في ميدان القتال حتى ان ذلك غالبا ما كان يصبح الوسيلة الوحيدة لتموين الجنود • وكانت القوات التركية التي تقف على حافة الانهيار المعنوي تعاني الاندحارات العسكرية الواحد بعد الآخر رغم تفوقها في المعدات العسكرية • وحتى في حالة احرازها الانتصارات لم تكن هناك أية ثقة في ان هذه الانتصارات ستؤدي الى تغيير جذري في الوضع العسكري •

واتسع بين الجنود انعدام الثقة والشك في القدرة على الانتصار في الحرب ضد القبائل والأقاليم الثائرة والاستياء من الانظمة العسكرية وأدى ذلك كله في الحساب النهائي الى خرق الانضباط العسكري بشكل مباشر ورفض تنفيذ الأوامر العسكرية بل وحتى رفض الانصياع للسلطان نفسه • وقد ظهر ذلك بوضوح في الوحدات العاملة في اليمن على وجه الخصوص ، حيث كان جنود منفردون ومجموعات كاملة من المقاتلين الاتراك يهربون اثناء العمليات العسكرية ويختفون في المنطقة التي يسيطر عليها الثوار [٢٧ ، ص ١٠٣ ، ١١٢] • غير أن الاحتجاج لم يكن سلبيا فقط ففي صنعاء بدأ في ١٩٠٦ اضراب موظفي التلغراف الذين طالبوا الوالي بارسالهم الى الوطن • وفي الوقت نفسه توجهت وحدات الجيش المرابطة في عمران دون امر الى صنعاء وطالب افرادها بتسريحهم فورا وانضم اليهم جنود من حامية صنعاء ، ثم احتلت القوات الثائرة المسجد الرئيس في صنعاء واعتصمت فيه لمدة اسبوعين حتى اضطر الوالي آخر الأمر الى تنفيذ مطاليبهم • كذلك قامت قوات الاحتياط المرابطة في الحديدة* بانتفاضة مشابهة [١٩ ، ط ٢ ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤] •

---

* لوحظت انتفاضات قوات الاحتياط في الحديدة في تسعينات القرن ←

ولم يكن من النادر ان يؤدي مجرد التهديد بالارسال الى اليمن او الى ولاية عربية اخرى الى الفرار من الجيش او الى هياجات الجنود . ففي ١٩٠٦ تمرد ثمانمائة جندي من حامية اسطنبول .. كذلك اشتعلت في السنة نفسها انتفاضة للجنود في طرابزون احتجاجا على ارسالهم الى اليمن [٣٤ ، ص ٢٢٠] . وقد رفضت بعض الأفواج الكردية من الحميدية تنفيذ الامر بالهجوم على ثوار اليمن وقد فقدت الخدمة في وحدات الحميدية على العموم الكثير من جاذبيتها بعد ان بدأت الحكومة تستخدمها في العمليات العسكرية في اليمن [٣٠ ، ص ١١٥ — ١١٧] .

ان الانتفاضات الجماهيرية في الولايات العربية وكذلك في الولايات الاخرى من الامبراطورية العثمانية ، تلك الانتفاضات التي كان عبد الحميد يسعى لان يخمدها بالاستناد الى وسائل الاكراه فقط ، كانت احد العوامل التي ساعدت على تنامي الميول المعادية للحكومة في الجيش [انظر : ١٣ ، ص ٤٠] . ان التذمر الصامت في الجيش والانتفاضات المنفردة كانت تجري بشكل عفوي وغالبا ما كانت اسبابها ذات طابع شخصي غير انها في وضع استحكمت فيه الازمة السياسية العميقة كانت تتخذ بالنسبة للنظام معنى ينذر بالشؤم . لقد اتسعت الهوة التي تفصل جماهير الجنود والضباط العاديين عن علية الجيش ففقد عبدالحميد وعصبة البلاط السيطرة على الجيش — أملهم الأساسي والقوة الحقيقية الوحيدة عمليا التي كانوا يستندون اليها في محاولتهم للاحتفاظ بالسلطة. وهكذا تكون داخل القوات المسلحة العثمانية جو في غاية الملاءمة لنشاط المعارضة العثمانية المعادية للحكم المطلق وتهيآت الظروف لتحويل الجيش التركي من ركيزة للحكم المطلق الى احد العوامل الفائقة الأهمية في نجاح

التاسع عشر وفي السنوات الاخيرة التي سبقت ثورة الاتحاديين في ١٩٠٨ . لقد ابدت على الوحدات المرابطة في اليمن وفي الاقاليم العربية الاخرى تأثيرا ثوريا حقيقة ان السلطات العثمانية كانت تنفي الى تلك الولايات « العناصر غير الموثوقة » من الضباط والموظفين .

احدى ثورات عصر « يقظة آسيا » المعادية للحكم المستبد هي ثـورة الاتحاديين في ١٩٠٨ ٠

لقد كانت الحملات التأديبية الباهضة التكاليف عبئا على الخزينـة العثمانية ليس في مقدورها تحمله فكانت سببا اضافيا لزيـادة الضرائب وساعدت على استمرار تفاقم الازمة المالية والاقتصادية المستديمة فأدت في الحساب النهائي الى تفاقم الازمة السياسية أيضا ٠ ان الاجراءات العسكرية التأديبية كانت في عداد الجوانب المكروهة جدا لسياسة نظام عبد الحميد الثاني الداخلية ٠ فلقد تنامى الاستياء حتى في معسكـر الرجعية المتطرفة التي كان عبد الحميد يستند اليها بسبب اتضاح عـدم أهلية النظـام لتحقيق أي نتائج ايجابية في هذه القضية ٠ حتى رعايا الامبراطورية العثمانية الجهلة والمتأخرون المسحوقون أخذوا تدريجيـا يفقدون الثقة التي زرعت في نفوسهم بشكل مصطنع بالقدرة المطلقـة للسلطان « ظل الله على الأرض » (وهو اللقب الذي كان يطلق علـى السلطان ــ الخليفة تعظيما له) ٠ لقد كانت الاخفاقات في الحرب ضد حركة الثوار في الاقطار العربية واحدا من الاسباب المهمة لانهيار الهيبة المعنوية للنظام ٠

لقد أصبح التنكيل الوحشي بالسكان الثائرين وخصوصـا فـي ممتلكات الامبراطورية العربية موضوعا للهجوم العنيف من جانب المعارضة العثمانية المعادية للحكم المطلـق ، فخص الاتحاديون لهذا الموضـوع اهتماما كبيرا في نشاطهم الدعائي ٠ وهكذا ادان مؤتمر باريس للمنظمات الاتحادية (كانون الاول ١٩٠٧) سياسة القمع الشامل واشار بشكـل خاص الى « الفظائع الاجرامية في البلاد العربية » [٣٤ ، ص ٢٤٨] ودعا في البيان الذي أقره الى عرقلة استمرار الحملات التأديبية بكل الوسائل الممكنـة ٠

لقد كانت الحركات الجماهيرية في الولايات العربية مظهرا للازمة السياسية والاجتماعية التي شملت الامبراطورية العثمانية ولكنها اصبحت

بدورها عاملا مهما من عوامل تشديد هذه الازمة واضعاف قوة الرجعية العثمانية وبالتالي انهيار نظام السلطان الدموي • وعلى الرغم من المواقف المحافظة جدا للفئات التي تزعمها بل ورغم نتائجها الرجعية في عدد من الحالات فان انتفاضات الجماهير الشعبية ومقاومتها السلبية في أكثر المناطق تأخرا في المجال الاجتماعي ساعدت على نشوء اتجاهات في الحركة التحررية أكثر نضجا في مستواها الاجتماعي والايدولوجي والسياسي• وفي ظروف ذلك العصر التاريخية المحددة ، في فترة تحطيم أنظمة القرون الوسطى في الشرق ، اندمجت تلك الانتفاضات بالحركة العثمانية العامة الهادفة الى التجديد الاجتماعي والسياسي ولعبت دورها الايجابي في نضال شعوب الامبراطورية العثمانية من أجل التقدم الاجتماعي •

المصـــادر

١ ـ برو ، توفيق علي ، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٠ .

ـ ٢ ـ بطي ، رفائيل ، الصحافة في العراق ، القاهرة ١٩٥٥ .

٢ ـ الجرافي ، القاضي ، العلامة فخر الدين عبدالله بن عبد الكريم، تحفة الاخوان بحلية علامة الزمان ، حليف السنة والقرآن المولى شيخ الاسلام المعمر حسين بن علـي العمري ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .

٣ ـ الخطيب ، عبد الحميد ، الامام العادل صاحب الجلالة الملـك عبد العزيز بن عبد الرحمـن الفيصل آل سعـود ، سيرته ، بطولته ، سر عظمته ، الجزء الاول والثاني ، القاهرة ١٩٥١ .

٤ ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، وضع حواشيه واشرف على تنسيقه يعقوب عبد العزيز الرشيد ، بيروت ، د.ت .

٥ ـ الريحاني ، امين ، ملوك العرب ، رحلة في البلاد العربية م ١ ، ٢ بيروت ١٩٦٠ .

٦ ـ زيارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، انباء عن دولة بلقيس وسبأ ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ .

٧ ـ زيارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، ائمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة ، الامام الهادي شرف الدين (ابن محمد الحسيني) القاهرة ، ١٣٧٦ هـ .

٨ ـ زيارة الحسني الصنعاني ، محمد بن محمد بن يحيى ، ائمـة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة . المجدد للدين امير المؤمنين المنصور بالله رب العالمين محمد بن يحيى حميد الدين ، القاهرة ١٣٧٦ هـ .

٩ ـ العرشي ، القاضي حسين بن احمد ، كتاب بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وامام . تاليف القاضي حسين بن احمد العرشي وقد ختم حوادثه في سنـة ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م . عنى بنشره الاب انستاس ماري الكرملي من اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية واوصل حوادثه الى آخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٥٨ للهجرة ، الموافق لمنتصف ايار (مايو) سنة ١٩٣٩ للميلاد ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

١٠ ـ العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الثامن ،

العهد العثماني الاخير من سنة ١٢٨٩ هـ ـ ١٨٧٢ م الى سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م ، بغداد ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م .

١١ ـ العمري الموصلي ، محمد طاهر ، تاريخ مقدرات العراق السياسية . تاريخ سياسي يبحث عن تطور علاقات الدول الادرياتية في العراق وعن سر القضية الحجازية والقضية العراقية وعن ثورات العراق عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ مفصلا ومستندا الى وثائق رسمية وخصوصية ، المجلدان الاول والثالث ، بغداد ١٩٢٥ .

١٢ ـ الفرحان ، راشد عبدالله ، مختصر تاريخ الكويت وعلاقتها بالحكومة البريطانية والدول العربية ـ ماضي الكويت وحاضرها ـ ١ ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٣ ـ فيضي ، سليمان ، في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي، بغداد ، ١٩٥٢ .

١٤ ـ قلعجي ، قدري ، اضواء على تاريخ الكويت ، بيروت ١٩٦٢ .

١٥ ـ الكوراني ، علي سيدو ، من عمان الى العمادية او جولة في كردستان الجنوبية . عمان ١٩٣٩ .

١٦ ـ محمود ، دكتور حسن سليمان وابراهيم ، سيد محمد ،تاريخ المملكة العربية السعودية في اطار تاريخ الوطن العربي الكبير في العصور الحديثة ، القاهرة ، د.ت .

١٧ ـ مراثي فقيد اليمن والاسلام المرحوم السيد العلامة محمد بن محمد بن يحيى زبارة اليماني الصنعاني رحمه الله ونبذة من تاريخ حياته ، تعز ، د.ت .

١٨ ـ المزهر آل فرعون ، فريق ، الحقائق الناصعة في الثورةالعراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها مزودا بالوثائق وموضحا بالخرائط والصور . الجزء ١ ، ٢ بغداد ، ١٩٥٢ .

١٩ ـ الواسعي اليماني ، العلامة الشيخ عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرحة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ والطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٢٧ م .

20 — Averyanov; Etnografee chesky E voenno-politee chesky obzor aziatskeekh vladenii Ottoman skoy Imperii, SPB., 1912.

21 — Bell, Gertrude Lowthian; The Letters of Gertrude Bell, vol. 1-11, London, 1927.

22 — Bondarevsky G. L. Osvobodeetelnaya borba narodov Emena v Kontse XIX V. E. Pozeetsiya Velee Kobritanii - VI, 1971, iyoom, No. 6.

23 — Dickson H.R.P. the Arab of the Desert. A Glimpse into Bedouin Life in Kuwait and Saudi Arabia, London, 1948.

24 — Geere H. Valentine. By Nile and Euphrates. A Record of Discovery and Adventure, Edinburgh, 1904.

25 — Ingrams Harold. The Yemen Imams, Rulers and Revolutions, London and Southampton, 1963.

26 — «Izvestiya Shtaba Kavkazskovo Voennovo Okruga».

27 — Jacob Harold F. Kings of Arabia. The Rise and Set of the Turkish Sovranty in the Arabian Peninsula, London, 1933.

28 — Kreemsky A. Aravskoe Vosstanie E evo Perspekteeve — «Probleme Veleekoy Rossii» 1916, No. 10.

29 — Kreemsky A. Musulmanstvo E evo budushnost. Proshloe Islama, Sovremennoe Sostoyanie Musulmanskeekh narodov, eekh umstvennie sposobnosti, eekh otnoshenie K evropeiskoy tsivilizatsii M., 1899.

30 — Lazarev M.S. Kordsky vopros (1891-1917) M., 1972

31 — Leven Z.E. Razveetie ocnovneekh techenii obshestvenno — politeecheskoy Misli V Sirii E Egipte (novoe vremia) M., 1972.

32 — Nite E.F. Revolutsionii Perevorot v turtsii (The Awakening of Turkey), CPB, 1914.

33 — «Novoe Vreemia».

34 — Petrosyan, U.A. Mladaturetskoe dvenenie (vtoraya poloveena XIX — nachala XX V.) M., 1971.

35 — Said, Ameen. Vosstaniya Arabov V XX veke, perev. S. Arab., M., 1964.

36 — «Soabsheniya Imperatorskovo Pravoslavnovo Palasteen - Skovo obshestva ».

37 — Ular, Alexander und Insabato Enrico Der Erloschende Halbmond. Turkische Enth ullungen, Frankfort A. M., 1909

38 — «Voorozenie Seeli Turtsy. ch. 1 voenaya podgotoyka armii (po dannem K 1 aprelya 1913) ».